السلطان محمد الفاتح

بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية

الدكتور سيد رضوان علي

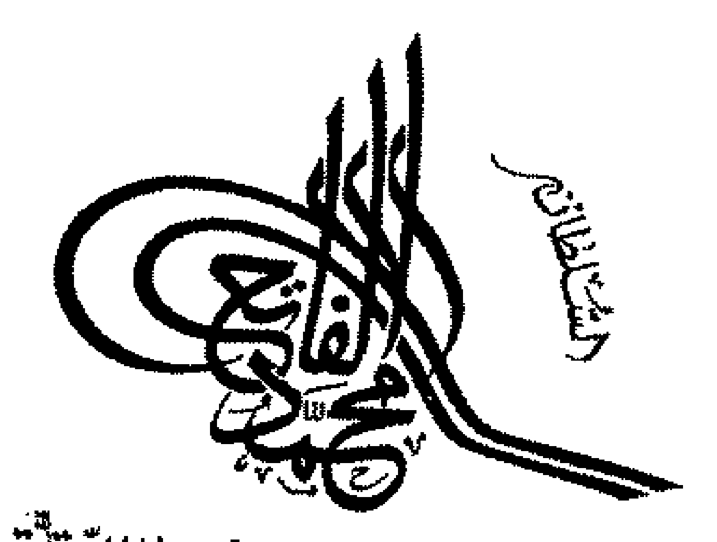


الدار السعودية للنشر والتوزيع

السلطان محمد الفاتح

بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية


بسم الله الرحمن الرحيم

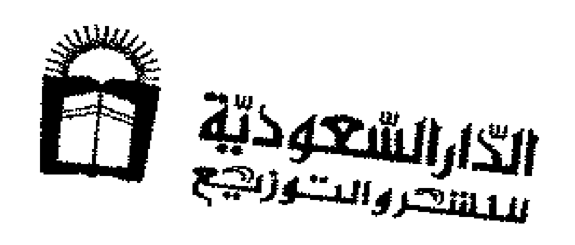


بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية

تأليف

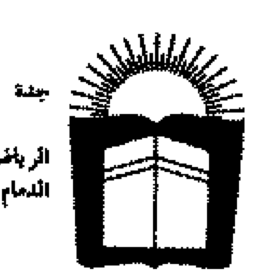
الدكتور سيد رضوان علي

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

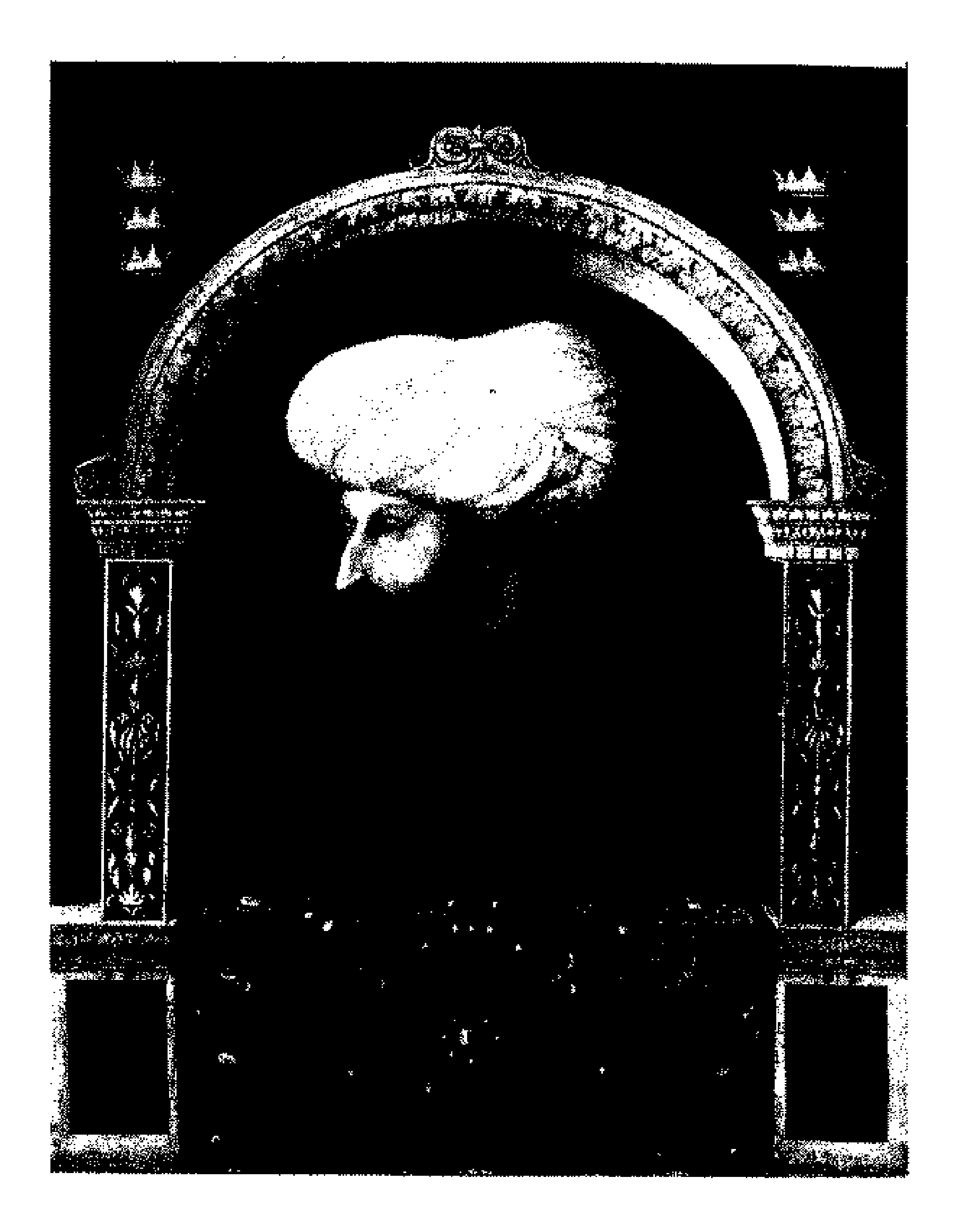


الطبعة الأولى

١٩٨٢م - ١٤٠٢هـ



جدة : الإدارة - البغدادية عمارة الجوهرة الدور الثاني شقة رقم ٧ و١٢
تليفون ٦٤٢٤٠٤٣/٦٤٣٧٨٢١ ص. ب. : ٢٠٤٣ برقياً: نشر دار
الرياض : السليمانية، شارع الأربعين تليفون ٤٦٤٧٠١٥ ص. ب. : ٩٤٧٣
الدمام : الشارع العام، عمارة المنصور والعبدلي ص. ب. : ٨٩٩ تليفون
٢٣٠١٥ برقياً: نشر دار الدمام.



ـ صورة السلطان محمد الفاتح ، بريشة الرسّام جنتلي بليني

بَيْنَ يَدَيِّ الكِتَابْ

إن السلطان محمد الفاتح من أولئك العظماء الذين لا يخلو كتاب عن تاريخ العالم عن ذكرهم ، وهو يحتلّ مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي عبر القرون ، لدوره الفريد الذي قام به في إنجاز ما عجز عنه المسلمون لمدة ثمانية قرون ، أعني فتح القسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية التي كانت في صراع مرير متواصل مع الدول الإسلامية المختلفة المجاورة لها طوال هذه القرون . وهو بهذا الفتح استحق لقب « الفاتح » لدى الجميع .

وخلال حكمه تحولت الدولة العثمانية إلى قوة إسلامية عالمية ، وغدت تعرف في الغرب بالامبراطورية العثمانية ، وامتد الفتح الإسلامي في عهده إلى جميع اليونان ، وجزر الأرخبيل وما يعرف الآن بيوغوسلافيا ورومانيا والبانيا وشبه جزيرة القرم أو كريميا (في روسيا السوفيتية) . وأصبحت البحار : الأسود وأزوف والأدرياتيك والأرخبيل بحيرات عثمانية .

وإن شخصية السلطان محمد الفاتح ذات جوانب متعددة ، وهو في تخطيطه وتصميمه ، وطموحه وإقدامه ، وتقديره ، وتشجيعه للعلم والمعرفة ، وعنايته بالبناء والعمران ، وعمله المتواصل ، ثم في صفاته

الشخصية العالية من نبل اخلاق ، ورحابة صدر ، وتسامح وبذل يعتبر نموذجا رائعاً للحاكم المسلم المجاهد المستقيم العادل البنّاء .

هذا ، وسيرته وجهاده يحمل إلى الشباب المسلم بصفة خاصة رسالة ، وهي رسالة الكفاح والجد والبناء . فانه فتح القسطنطينية العظيمة وهو شاب لم يتجاوز عمره ثلاثا وعشرين سنة ، وقاد بعد ذلك جيوشه إلى أوربا الشرقية يكمل ما بدأه أجداده من الفتح في البلقان ونشر رسالة الإسلام في ربوع هذا الجزء من أوربا ، كما أنه اهتم ببناء عاصمته الجديدة ، القسطنطينية ، ماديا ومعنويا حتى أصبحت عاصمة الإسلام الجديدة بعد دمشق وبغداد والقاهرة .

وحاولت في هذه الدراسة المقتضبة أن أعطي صورة موجزة وشاملة عن جوانب شخصيته ومنجزاته السياسية والحضارية ، كما عنيت أن أردّ عنه بعض الاتهامات الباطلة من قبل خصومه الأوربيين ومقلديهم من الكتاب المسلمين .

ولقد ظهر هذا البحث قبل سنوات في حولية كلية الأداب بجامعة بنغازي في ليبيا ، وينشر الآن في صورة هذا الكتاب بعد إجراء بعض التعديل .

وأشكر صديقي الفاضل الأستاذ محمد صلاح الدين صاحب الدار السعودية للنشر الذي تفضل بنشره . والله وليّ التوفيق .

سيد رضوان علي

الرياض

١٩ محرم ١٤٠٢ الموافق ١ نوفمبر ١٩٨١ م

السلطان محمد الفاتح

إن الدولة العثمانية استغرق بناؤ ها مدة قرن ، ثم أصيبت في بداية القرن الخامس عشر الميلادي بمحنة كبرى على يد الفاتح المغولي تيمورلنك وكادت أن تنهار أو تتمزق بسبب الحرب الأهلية الطويلة الأمد إثر ذلك ، ولكنها أنقذت وأعيد بناؤ ها على أيدي سلاطينها الأكفاء في ظرف أربعين سنة . وهكذا استغرق تكونها وتوطيدها مدة قرن ونصف قرن من الزمن ، منذ نشأتها الأولى كإمارة عثمان بن أرطغرل الصغيرة إلى أن أصبحت دولة قوية الأركان ، شامخة البنيان في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي ، شأن كل الإمبراطوريات الكبرى الطويلة الأجل التي لا يستكمل بناؤ ها إلا بعد فترة مديدة من الزمن . وآن الأوان للدولة العثمانية بعد استقرار فتوحها في آسية الصغرى والبلقان بأن تغدو قوة عالمية ، وتحل محل الإمبراطورية البيزنطية المتداعية التي لم يبق مبرر لبقائها بعد أن أحاط بها العثمانيون من جميع جهاتها ، ولم يبق في أيدي أباطرتها إلا العاصمة العتيدة الآيلة الى الاضمحلال والخراب ، القسطنطينية . وتم ذلك في عهد السلطان

محمد الثاني الشاب الذي خلف أباه مراد الثاني ، واشتهر في التاريخ بمحمد الفاتح . وفي عهده تحولت الدولة العثمانية من سلطنة إلى إمبراطورية ، ومن قوة إسلامية إلى قوة عالمية ، وامتدت فترة عظمتها لمدة قرن من الزمان ، وبلغت ذروتها من القوة والمجد والرقي في عهد سليمان القانوني ابن حفيد محمد الفاتح ، في القرن السادس عشر الميلادي .

حكم السلطان محمد الفاتح وشخصيته[1] :

تولى محمد الثاني بن مراد الثاني بن محمد الأول حكم الدولة العثمانية في ١٤٥١م وهو شاب لم يتجاوز عمره ٢٢ سنة ، وحكم لمدة ٣٠ سنة (١٤٥١ - ١٤٨١) واشتهر في التاريخ بلقب محمد الفاتح ،

---

(١) أفاض المؤلفون الغربيون في الكلام عن حياته وحكمه ، وألفوا في سيرته ، ومن أقدم هذه المؤلفات كتاب المؤلف الفرنسي من القرن السابع عشر جوييه « Guillet »واحدثها بقلم عالم التركيات الألماني بسابنجر «Babinger» بعنوان «Mehemed der Eroberer und Sein Zeit, (Munich 1953)» وفي اللغة العربية كتابان جيدان عنه :
« أبو الفتح السلطان محمد الثاني وحياته العدلية » للقاضي الباحث التركي علي همت الأقسكي و« محمد الفاتح » للدكتور سالم الرشيدي ، ولقد أفدنا منها كثيرا . وهناك كتاب صغير آخر عن حياته بقلم الدكتور محمد صفوت . وكتب عنه كبن «Gibbon» الفصل ٦٨ من تاريخه المذكور ، من وجهة النظر المسيحية والأوروبية التقليدية ، معتمداً على مصادر بيزنطية معاصرة .

لفتحه القسطنطينية ، وهو من بين الفاتحين القلائل في التاريخ العالمي في هذه السن المبكرة ، ومن بناة الحضارة الراقية والمجد الرفيع .

ورث السلطان محمد الفاتح دولة قوية واسعة ، ولكن لم ترض نفسه الطموح بأن يكتفي بأمجاد أسلافه ، ويعيش في رفاهية ونعيم ، بل صمم على أن يزيد أمجاداً جديدة إلى أمجادهم بفتوحه في أوربا وآسية الصغرى ويتوج تلك الأمجاد وأمجاد الإسلام عامة بتحقيق حلم راود المسلمين مدة ألف عام ، وهو فتح القسطنطينية ، عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، العدوة القديمة للإسلام والمسلمين منذ عهدهم الأول . وكان هذا الفتح أقسى ضربة سددها الإسلام في وجه أوربا النصرانية في تاريخها الطويل على يد هذا الفاتح . ومن ثم نرى معظم المؤرخين الغربيين ينالون من محمد الفاتح ، وينعتونه بأبشع الصفات من قسوة ووحشية وغدر . ولم يشذ عنه حتى المستشرق الإنجليزي المعتدل لين بول Lane Poole وهو محض افتراء وبهتان، لم يدفعهم إليه إلا الحنق والغيظ لمحوه اسم الدولة البيزنطية وريثة الإمبراطورية الرومانية ، من خريطة التاريخ إلى الأبد .

كان السلطان محمد الفاتح عبقرية فذة من عبقريات الإسلام ، فلم يكن مجرد فاتح مغوار وقائد عسكري مظفر ، بل كان يجمع بين صفات القيادة العسكرية الموفقة وبين الثقافة العلمية الرفيعة ، يقود الجيوش ويفتح المدن والدول ، ويتذوق العلوم والآداب والفنون بمختلف أنواعها ، ويقدرها ويرعاها ، وينشىء ويعمر .

ولقد أشاد بذكره المؤرخون المسلمون المعاصرون له وخاصة المصريون ، كابن تغري بردي وابن اياس ، والسخاوي ، والسيوطي ، وابن العماد الحنبلي والشوكاني اليمني فيما كتبوه من ترجمته في مؤلفاتهم التاريخية العامة ، وأثنوا عليه ثناءا عاطراً ، ونوهوا بفتوحه وعلمه وعظمته فمن ذلك ما قاله المؤرخ المصري ابن اياس عندما بلغه نبأ وفاته : « وفي ربيع الأول جاءت الأخبار بوفاة السلطان المعظم المفخم المجاهد الغازي ملك الروم وصاحب القسطنطينية ، وهو محمد بن مراد بن محمد . . . وكان ملكا جليلا عظيما ساد على بني عثمان كلهم ، وانتشر ذكره بالعدل في سائر الآفاق ، وحاز الفضل والعلم والعدل ، والكرم الزائد ، وسعة المال ، وكثرة الجيوش ، والاستيلاء على الأقاليم الكفرية . وفتح الكثير من حصونها وقلاعها[٢] . . . الخ .

لا شك أن محمداً الفاتح كان من الشخصيات الموهوبة في النواحي العلمية والسياسية والعسكرية على السواء ، ونشأ نشأة علمية منذ الصغر ،

---

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور أو تاريخ مصر ج ٢ ص ٢٠٤ ـ ٥ ، ومثل ذلك ما كتبه ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ج ٧ (طبعة كاليفورنيا) ص ٣٥٧ و ٤٣٧ ، وكتابه الآخر حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٩٨ ـ ٩ ج ٣ ص ٤٤٨ ـ ٩ ، السخاوي في ضوء اللامع ج ١٠ ص ٤٧ ، والشوكاني في البدر الطالع ج ٢ ص ٢٦٩ وابن العماد الحنبلي ج ٧ ص ٣٤٤ ـ ٥ ، والآخرون غيرهم

فوالده مراد الثاني درّ به على الفنون العسكرية والشئون السياسية واهتم بتربيته ، وعين لتثقيفه أعظم علماء الدولة في العلوم الدينية والأدبية والرياضية والفلكية ، كابن تمجيد ، والمولى شمس الدين الكوراني ، والمولى زيرك ، وخواجه زاده وسنان باشا وغيرهم[٣] . وهكذا انصرف محمد الفاتح إلى دراسة مختلف العلوم الدينية والأدبية وشغف بالعلم ومصاحبة العلماء والأدباء وتقديرهم ورعايتهم ، ولم يفارقه هذا الشغف طوال حياته ، وظهرت آثار ذلك في إنشائه المعاهد العالية للعلم ، المعروفة بمدارس الصحن الثمان في القسطنطينية بعد فتحها وتردده اليها دائما ، وتشجيعه للعلماء الأفذاذ والأدباء الموهوبين من جنسيات مختلفة ليس في بلاده فقط بل خارجها أيضاً . ومن ذلك ما ذكر أنه كان يبعث هدايا مالية الى العالم النحوي المصري محيى الدين الكافيجي أو الكافية جى ، كما عين مرتبات سنوية لكل من الشاعر الصوفي الفارسي الشهير عبد الرحمن جامى في ايران ، وكذلك الشاعر المسلم الهندي خواجه جهان في الهند .

وكان مولعا بقراءة كتب التاريخ وسير كبار فاتحي العالم وحكامه ، وسماعها كالإسكندر الكبير ، والقياصرة أغسطس الروماني والقسطنطين الكبير ، والإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس كما ذكره

---

(٣) وانظر اسماء الأساتذة الآخرين في علي همت الأقسكي ، المصدر المذكور ص ٣٠ ، هامش ٣ ، وتراجمهم في مواضع مختلفة من هذا الكتاب ، وفي كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية لطاشكبري زادة .

المؤرخ البيزنطي المعاصر جورج فرانزا[٤] . ومكنته بذلك ثقافته اللغوية الواسعة ، اذ كان يجيد حسب كلام المؤلف نفسه اللغة اليونانية واللاتينية والسلافية بالإضافة الى اللغات العربية والفارسية والتركية . وهو الذي أمر بترجمة جغرافية بطليموس من نسخة أصلية وجدها في مكتبة الإمبراطور البيزنطي الأخير الى اللغة العربية ، كما أمر بترجمة كتاب بلوتارخ «Plutarch» الشهير عن حياة مشاهير الرومان الى اللغة التركية لإفادة شعبه حسب كلام كبن «Gibbon»[٥] .

أما الشعر فكان ميالا اليه بموهبته الفطرية وطبيعته الفنية وكان يقرض الشعر باللغة التركية والفارسية ، وله ديوان مطبوع . ويبلغ غرامه به انه كان في بلاطه نحو ثلاثين شاعرا لهم مرتبات شهرية . ولولوعه هذا بعث إليه أحد الادباء اللاتين فليلف « Philelphe» قصيدة مدح من ميلانو ، يتوسل بها الى الفاتح لإطلاق سراح عائلته بعد فتح القسطنطينية فتأثر بها ، وأجاب طلبه[٦] .

ودعوته للرسام الإيطالي الشهير جنتيلي بليني Gentile Bellini والمثال البندقي بارتولوميو «Bartholomio» ، وبناؤه جامعه الشهير ،

---

(٤) «Gibbon, Op. Cit. Vi, 418» .

(٥) «Ibid., P. 417» وذكر فرانزا اللغة الكلدانية بدل السلافية ، ولكن الذي اخترناه هو ما ذهب اليه محقق تاريخ كبن .O. S وهو الأصوب ، وذلك لاحتكاك العثمانيين منذ القرن الرابع عشر الميلادي بالأمم السلافية .

(٦) «Gibbon, Vol. Vi, P. 418»

واعجابه بمعهد اكروبول في أثينا بعد فتحها ، كل ذلك دليل ساطع على طبيعته الفنية، وتذوقه لروائع الفن ، وتشجيع أصحابها ، دون تعصب ممقوت .

ولقد اهتم الفاتح بتنظيم إدارة دولته مدنيا وقانونيا ، ومن ثم عرف بلقب محمد القانوني[٧] أيضاً لوضعه قانون الدولة الأول ، المتصل بوظائف رجال الدولة والقصر والجيش ، والذي ظل معمولا به الى عهد سليمان القانوني في القرن السادس عشر ، الذي أجرى بعض التعديلات عليه . . . وهكذا فلم يكن محمد الفاتح مجرد فاتح عظيم ، بل منشيء حضارة تركية عثمانية إسلامية .

وكان من أهم صفات الفاتح الشخصية العزيمة التي لا تلين أمام العقبات والصعاب ، والجرأة والإقدام اللذان لا يعترفان بالمستحيل ، والطموح الذي لا حد له ، والذي كان يدفعه إلى إنشاء إمبراطورية عالمية تضم الشرق والغرب على غرار إمبراطورية إسكندر الكبير ، وحالت دون تحقيقها موته المبكر . ومنها رحابة صدره وسماحته لأصحاب العقائد الأخرى ، والتي بلغت في عصر التعصب الديني المسيحي الممقوت الى حد أن دفعت بعض علماء الغرب ـ قديماً وحديثاً ـ إلى الآراء السخيفة الباطلة عن عقيدته نحو أنه لم يكن يقيم للدين الإسلامي وزنا كبيراً أو إنه كان مسيحيا في الباطن ويتظاهر

---

(٧) الرشيدي ، المصدر المذكور ، ص ٤٠٥ .

بالإسلام ، أو انه لم يكن يؤمن بأي دين[٨] ، وهو مجرد هراء . . .
وجدير بهذه المناسبة أن نذكر قول المؤرخ الإنجليزي المعاصر نورمن دانيل «Norman Daniel» .

The period of turkish expansion was one in which horror was a good deal mitigated. The notion of tolerance in Christiandom was borrowed from Muslim practice.

(إن فترة التوسع التركي كانت إحدى الفترات التي قل فيها الفزع والإرهاب إلى حد كبير . وإن فكرة التسامح في العالم المسيحي استعيرت من الممارسة الإسلامية) .

وكان من رحابة صدره أنه قبل من المؤرخ اليوناني قريتوبولوس «Critobolus» كتابا عن حياته ، رغم ما في هذا الكتاب من بعض المطاعن على سيرة الفاتح بجانب المدح الكثير . وكذلك مما كان يتحلى به من الصفات الكريمة ، التواضع للعلماء ورجال الدين ، ولم يكن قط جبارا متكبرا بالرغم مما بلغه من القوة والعظمة ، ولو أنه كانت تتغلب عليه بعض الأحيان حدة طبعه في معاملة رجال الدولة والجنود[١٠] . .

---

(٨) أنظر تفاصيل هذه الآراء أو هذه التخريفات في كتاب الرشيدي المذكور ، ص ٣٩٨ ـ ٩٠ .

(٩) انظر Norman Daniel, Islam, Earope and Imperialism, P. 13

(١٠) انظر للتفصيل عن حياته الشخصية وصفاته كتاب الرشيدي ، الفصل الأخير ٣٨٠ ـ ٤٢٤ .

وقبل أن ننتقل إلى الكلام عن إنجازاته العسكرية والسياسية والحضارية يحلو لنا أن ننقل رأي أحد كبار المستشرقين الإنكليز فيه ، وهو السيرتوماس أرنولد في كتابه « الخلافة » ونص ترجمته : اذا كان أحد السلاطين العثمانيين يستحق بجدارة بأن يطلق عليه أعظم لقب يمنحه العالم الإسلامي ، فهو بدون شك محمد الثاني الفاتح بعد أن أسس عاصمة الإمبراطورية التركية في القسطنطينية ، تلك المدينة المسيحية العظيمة التي كانت قد خيبت جميع محاولات المسلمين لفتحها عنوة لقرابة ثمانية قرون[١١] .

ثم هو أول سلطان عثماني بل أول حاكم إسلامي أطلق عليه أهل أوربا لقب السيد العظيم «Grand Seigneur» ، والذي ظل يطلق على السلاطين العثمانيين بعد ذلك إلى عهود طويلة . بقي أن نقول كلمة فيما قيل عن صرامة الفاتح وقسوته ، وقتله لوزيريه خليل باشا العجوز ومحمود باشا صهره ، وما نسب اليه من قتل أخيه الرضيع ، ليس من شك أن الفاتح كان صارما وقاسيا على من يشتم منهم رائحة الكيد والدسائس والمؤامرات ، ولو كانوا من المقربين لديه . ولقد ثبت عنده أن الوزير الأعظم خليل باشا كان ممالئا للإمبراطور البيزنطي ، فصادر أمواله وحبسه في أدرنة حيث مات في الحبس . أما محمود باشا فرغم أنه خدم الدولة وقاد الجيوش الى انتصارات ، ولكنه كان أنانيا حقودا على القادة الآخرين وطالما أضر ذلك بمصالح الدولة العليا ، الى محاولاته

---

(١١) Sir Thomas W. Arnold, The Caliphate, P. 135

للدس والوقيعة بين الفاتح وبين المقربين اليه من أساتذته وعلمائه ، وتكوين مراكز قوة بالتستر على بعض القادة الآخرين ، فلما تحقق الفاتح من ذلك استأصل شأفته . وكان من هذا القبيل قتله لدوق نوتاراس بعد الفتح ، وإمبراطور طرابزون اللذين تآمرا عليه . أما قصة قتله للأخ الرضيع فمن اختلاق المؤلف البيزنطي دوكاس ، ولا سند له من الواقع وكبرها هامر ونمقها ، وتناقلها منه المؤرخون المتأخرون ، ومنهم للأسف محمد فريد ، ولقد ناقش الدكتور سالم الرشيدي هذه القضية بتفصيل ، وأثبت بأدلة قاطعة أنها موضوعة مختلقة[١٢] . . وبنى على ذلك المؤرخون الغربيون أن الفاتح في قانونه المنسوب إليه وضع تشريع قتل السلطان إخوته . . وأورد هذا القانون لأول مرة المؤرخ النمساوي هامر . ولكنه كما أثبت القاضي الباحث التركي علي همت بركي الأقسكي بالنقد الداخلي والتاريخي باطل ، وانه اما مزور أو مدسوس عليه[١٣] . وبذلك تنهار هذه التهمة الشنيعة عليه .

---

(١٢) انظر كتابه محمد الفاتح ص ٤١٧ ـ ٤١٩ .

(١٣) انظر أبو الفتح السلطان محمد ص ١٩٩ ـ ٢٠٦ .

فتح القسطنطينية(١٤) :

يتوج فتح القسطنطينية إنجازات السلطان محمد الثاني العسكرية

---

(١٤) لقد أفرده عدد من المؤرخين في الشرق والغرب بالبحث والتأليف ، وأهمها وأشهرها كالتالي :

أحمد مختار باشا : فتح جليل قسطنطينية (استنبول ١٣١٦ هـ) . ضياء شاكر : كيف استولى الفاتح على استنبول (في التركية أيضا ، ولكن بالحرف اللاتيني ، استنبول ١٩٤٢) .

الأمير شكيب أرسلان : « فتح الترك للقسطنطينية وخلاصة خططها » بحث في كتاب حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢١٨ ـ ٢٣٧ . محمد عبد الله عنان : « فتح الترك العثمانيين للقسطنطينية » (في كتابه مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ص ١٣٦ ـ ١٦٦) . ولا غناء فيه إذ أنه نقل محض من المؤرخين الغربيين المتعصبين أمثال كبن ، وهامر ومور دتمان . وفصل الكلام فيه الدكتور الرشيدي في الفصول الخمسة الأولى من كتابه المذكور محمد الفاتح (ص ٥٤ ـ ١٨٢) وهو اشمل وأوسع ما كتب في هذا الفتح . أما في اللغات الغربية فأهمها الكتب التالية :

Gibbon, The Decline ....Chap. LXVIII

Mordtman, Beiagerung und Eroberung Constantinoples (Stuttgart 1958)

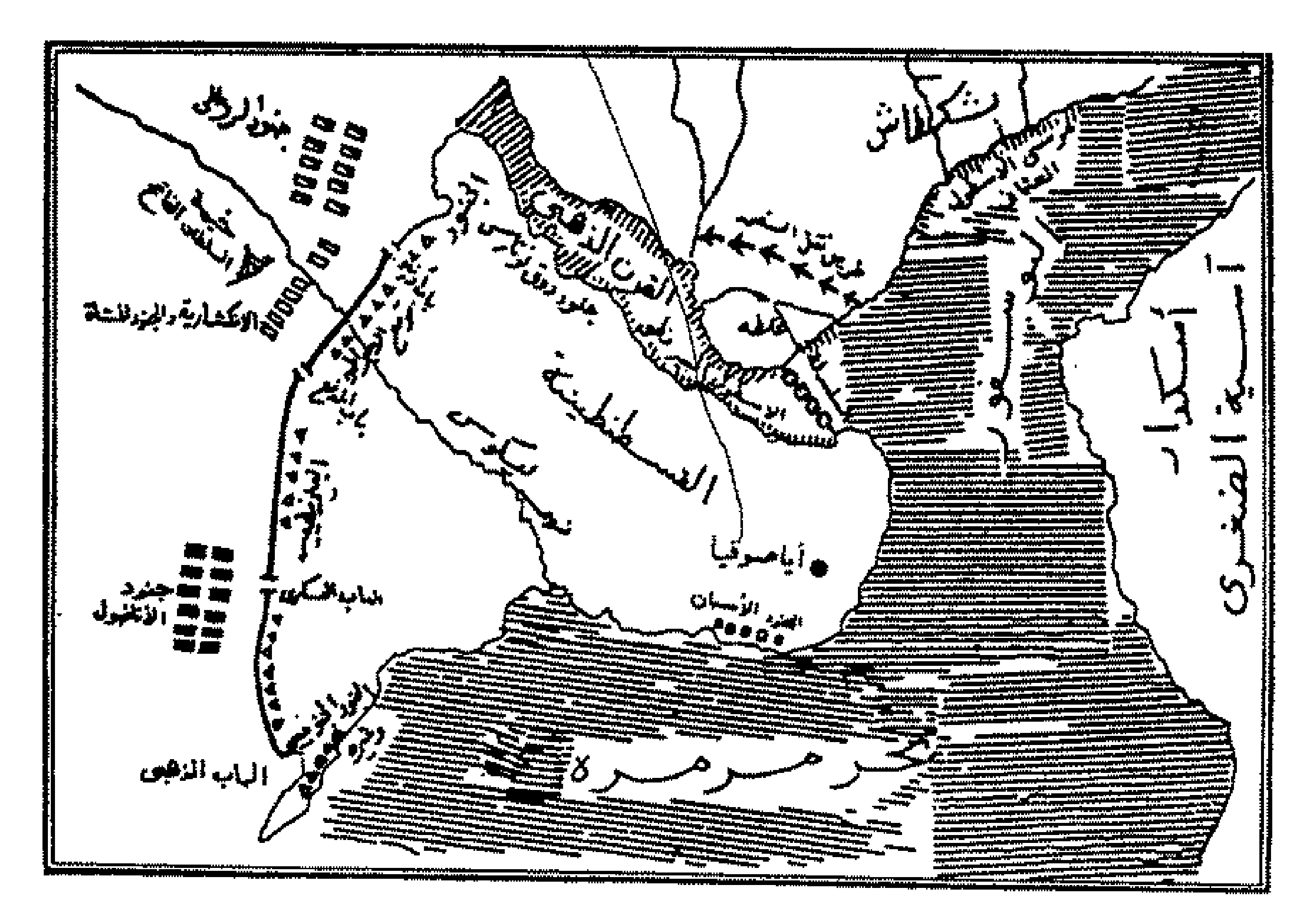
G. Schlumberger. Les Siege, La Prise et la Sac de Constantinople.... (Paris: 1935).

E. Pears, The Destruction of the Greek Empire and the story of the Capture of Constantinople by Turks.1903).

Sir. S. Runciman. The Fall of Constantinople, (1965).

في الشرق والغرب ، بل يبدأ عهده بهذا الفتح الذي أكسبه لقب محمد الفاتح في التاريخ . . . كان فتح هذه العاصمة البيزنطية العتيدة هدف المسلمين منذ العهد الأموي ، ثم غاية العثمانيين منذ أن عبروا بحر مرمرة إلى الشاطىء الأوروبي واستولوا على غاليبولي في عهدهم الأول في العقد الخامس من القرن الرابع عشر . ومهدوا لهذه الغاية بفتح منطقة تراقيا الغربية والشرقية ، ثم شبه جزيرة البلقان الى شواطىء الدانوب . . وكاد هذا الفتح يتم في نهاية هذا القرن على يد بايزيد الأول لولا ظهور الخطر المغولي آنذاك ، وما لاقاه العثمانيون من المحنة إثر هزيمتهم ، ثم الحرب الأهلية بعدها مباشرة .

كان هذا الفتح تطلعا دينيا منذ أمد بعيد ، كما أصبح ضرورة سياسية بعد قيام الدولة العثمانية في آسيا الشمالية والغربية وشبه جزيرة البلقان ، ولم يكن يفصل شطري دولتهم شمالا وجنوبا إلا القسطنطينية ، ولكنها ظلت قائمة كعاصمة الدولة البيزنطية منذ أن قبل الأباطرة البيزنطيون الدخول في تبعية العثمانيين في عهد مراد الأول، وبعد معركة ماريتزا الفاصلة في ١٣٧١ م على التحديد . بيد أن بعض هؤلاء الأباطرة ظلوا يكيدون للدولة العثمانية ـ بعد أن عجزوا عن محاربتها ـ بتأليب الدول النصرانية والبابا عليها آناً ، وبإغراء أمراء قرمان في الأناضول الجنوبي بالثورة على الحكم العثماني آناً آخر ، كما أنهم كانوا يحمون بعض الأمراء العثمانيين الفارين إليهم ، ويحرضون هؤلاء الأدعياء في العرش العثماني في إثارة



ـ مواقع الجيوش العثمانية أمام أسوار القسطنطينية ومواقع جنود الامبراطورية العثمانية .

القلاقل في وجه السلاطين العثمانيين ، أو يتلاعبون مع بعض هؤلاء السلاطين بمطالبة الأموال لقاء الاحتفاظ بهؤلاء الأدعياء .

وكان مراد الثاني والد الفاتح قد قرر إزاء هذه المؤامرات والتلاعب أن ينهي هذه المشكلة في أول عهده ، فحاصر القسطنطينية في ١٤٢٢ م بجنود قليلة ، ولكنه انصرف عن إتمام الفتح لمشاكل جديدة في الأناضول من جهة ، ولخضوع الإمبراطور البيزنطي له وتعهداته من جهة أخرى . . . وكذلك حالت سياسته السلمية دون إنهاء هذه المشكلة رغم تصميمه بذلك عقب معركة وارنة «Varna» ، التي كان الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن قد لعب دور المحرض فيها ، ولكنه قبل اعتذارات الإمبراطور وعفا عنه مرة أخرى .

أما السلطان محمد الثاني فكان من طراز آخر ، لا يؤمن بأنصاف الحلول ولا تثنيه عن إرادته الصلبة أية محاذير أو عوائق . ورأى بنظرته الثاقبة أن دولته لا يأمن جانبها إلا بفتح هذه العاصمة ، وإلحاقها بدولته ، ليتصل قسم الدولة الجنوبي في آسيا بشماله في أوربا . ولكنه لم يكن يريد أن يلجأ إلى ذلك بالقوة بل كان يفضل أن يتم ذلك دون إراقة دماء ، وأهوال الحرب . فطالب الإمبراطور قسطنطين الأخير أن يتنازل عنها له ، ويعيش في أمان مع جميع المراعاة الملكية . وازاء رفضه قرر فتحها بالقوة بإعداد لم يسبق له مثيل . وجعله يتخذ هذا القرار تحريض الإمبراطور لابراهيم أمير قرمان عليه ، ومطالبته

السلطان بمضاعفة مرتب الأمير العثماني أورخان الأسير لديه وإلا فيطلق سراحه ، ويمده بالجنود ضد الفاتح[١٥] . فبدأ ببناء قلعة منيعة في أضيق موضع من مضيق البوسفور على الشاطىء الأوربي ، إزاء القلعة الصغيرة التي بناها بايزيد الأول على الشاطىء الأسيوي من هذا المضيق ، والتي تعرف بأناضولو حصار . وعرفت هذه القلعة الجديدة الجبارة بروملي حصار ، وبنيت على شكل مثلث ، وتم بناؤها في أواخر أغسطس سنة ١٤٥٢ م ، ونصبت على أبراجها القوية المدافع الضخمة وحامية من الجنود . وهكذا تم إغلاق هذا المضيق من جهة الشرق في وجه الإمدادات التي يحتمل مجيئها من ناحية البحر الأسود ، كما وضعت قوة بحرية أخرى في بحر المرمرة في الغرب لمنع الإمدادات للعدو من جهة بحر ايجه .

كما أن الفاتح أعد أضخم قوة مدفعية لإتمام هذه المهمة التي عجز عنها كثير من الفاتحين فيما سبق . وكان هذا السلاح حديث العهد بالاختراع ، وكان الأتراك بدأوا يصنعون بعض المدافع في الأناضول . . . ووصل في هذا الأثناء أحد مهندسي سلاح المدفعية المجريين واسمه أوربان ، إلى بلاط الفاتح بعد أن فشل في القسطنطينية وغيرها من بلدان أوربا في الحصول على وظيفة وتقدير ، فرحب به الفاتح . وصنع هذا المهندس على طلب من السلطان عددا

---

(١٥) انظر تفصيل ذلك في «Gibbon, VI, P. 425» والرشيدي ص ٧٨ ـ ٧٩ .

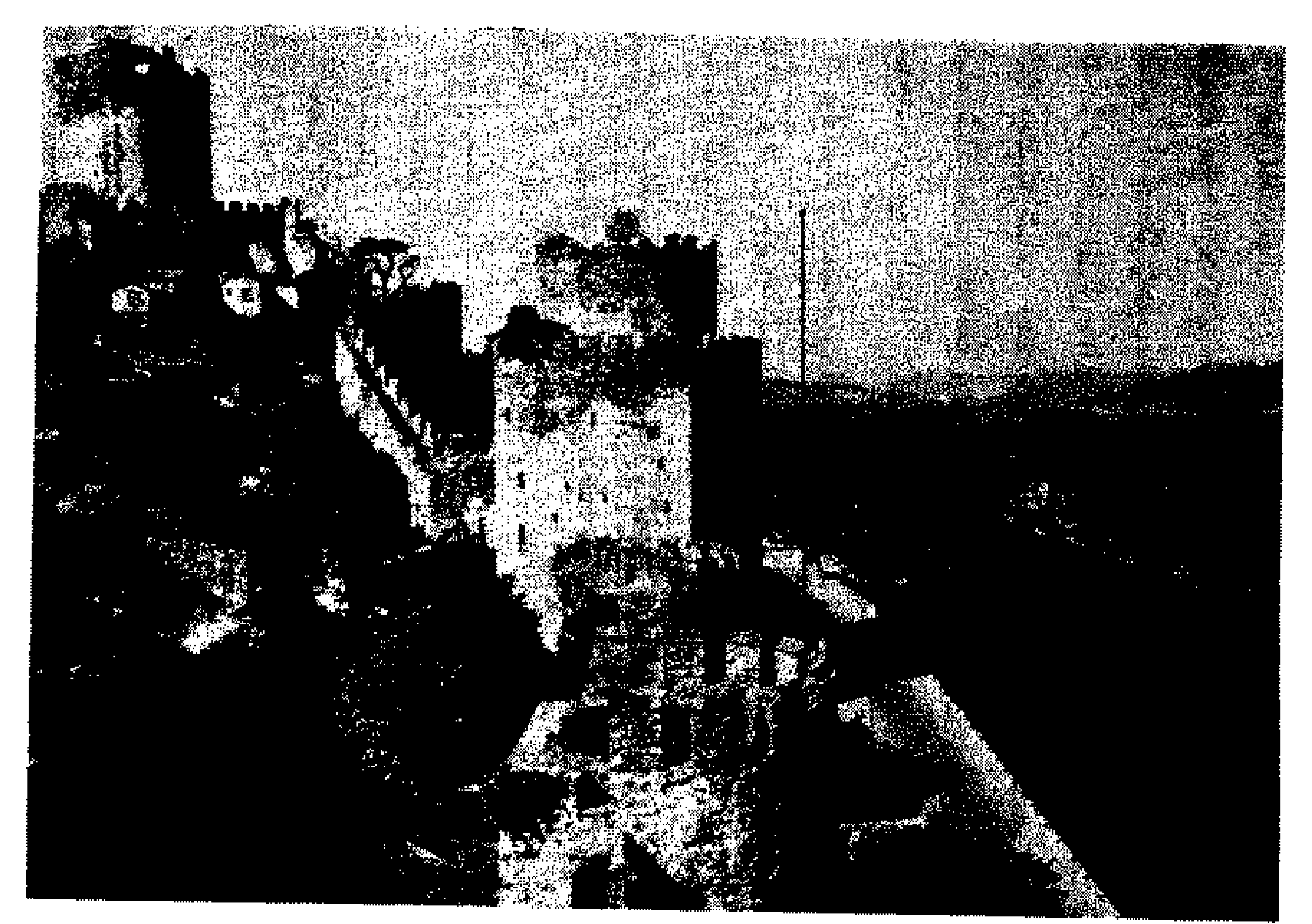
من المدافع الضخمة ، ومنها المدفع السلطاني أو المحمدية «Mahometta» في المصادر الإفرنجية ، الذي كان أضخم مدفع عرفه التاريخ في ذلك العصر ، وزنه سبع مائة طن ، وزنة قذيفته ١٢ ألف رطل ، ومرماه ميل واحد ، ويجره ٦٠ ثورا أو أكثر(١٦) .

وهكذا بعد تأهب واستعداد تام لمدة عام بدأ حصار القسطنطينية في ٦ أبريل سنة ١٤٥٣ م من جهة البر الأوربي ، حيث أقام الفاتح معسكره أمام الأبواب الثلاثة الكبرى للمدينة . ولم يكن يتجاوز عدد القوات العثمانية بشتى أنواعها ثمانين ألف مقاتل (٦٠ ألف فارس و٢٠ ألف مشاة) حسب تقدير المؤلف اللاتيني فليلفوس «Philelphus» المعاصر الدقيق(١٧) .

---

(١٦) أنظر وصف هذا المدفع في كل من «Gibbon, VI, 426» والرشيدي ، ص ٩١ ، و C.M. Cipolia, European Culture and Overseas Expansion, P. 75- 6

(١٧) «Gibbon, Vi, 429» ، يختلف الرواة البيزنطيون المعاصرون في تقدير هذه القوات الى حد يثير السخرية والضحك كما لاحظ «Oliphant Smeaton» محقق تاريخ كبن (Vi, P. 430) من ١٦٠ ألف الى ٤٥٠ ألف . ولقد ناقش كريزي (ص ٧٩) هذه الروايات من ٧٠ ألف الى ٢٥٠ ألف ، وانتهى بقوله : « وربما العدد الأقل كان كافيا لعمليات الحصار العسكرية ، كما انه ليس من المعقول أن محمد الفاتح يزيد من مشكلاته بأخذ المسؤولية على عاتقه لتموين هذا الحشد في صفوف الجيش بدون فائدة » . واختار محمد فريد (ص ٥٩) رواية ٢٥٠ ألف جندي ،=



ـ روملّي حصار ، أو حصن روملّي ، من بناء السلطان محمد الفاتح في سنة ١٤٥٢ م .

أما المدافعون عن القسطنطينية فيكاد يجمع الكتاب اليونانيون القدماء على أنهم كانوا لا يزيدون على ثمانية آلاف جندي ، وبهذا التقدير يأخذ المؤرخون الغربيون أو بين ثمانية وتسعة آلاف «Creasy, p. 78» من البيزنطيين واللاتين . أما الكتاب الأتراك أمثال أحمد مختار باشا وضياء شاكر فيستبعدون هذا التقدير ، ويستقلونه . ويقدر ضياء شاكر عدد المدافعين بما لا يقل عن ٦٠ ألفا . ويقرر الرشيدي عددهم بأربعين ألفا(١٨) .

والدوافع لتضخيم القوات المحاصرة وتقليل القوات المدافعة ظاهرة وهي تهوين شأن الفتح أمام هذا الحشد الضخم . . . ولكن ضخامة القوات المهاجمة لم يكن لها شأن كبير في الموضوع ، فالمسلمون في حملة مسلمة بن عبد الملك في العهد الأموي حشدوا قوة أضخم « ولكن التقدم الفني العسكري كان الآن في جانب العثمانيين » كما لاحظ البروفسور اوستروغورسكي «Ostrogorsky» . وهذا التقدم هو

= واسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار (١ / ٥٠٦) ٢٠٠ ألف ، واختار الرشيدي (ص ٩٨) رواية ١٥٠ و١٦٠ ألف جندي ، والتي ذهب اليها بعض المؤرخين الأتراك كأحمد مختار باشا وضياء شاكر . ونظرا الى هذا الاختلاف اكتفى كاتب مقال «Paliologi» في تاريخ كيمبرج الوسيط بالقول بأن القوات العثمانية كانت تفوق على القوات البيزنطية عشرين مرة «Vol. iv P. 377» .

(١٨) الرشيدي ، ص ٩٩ .

(١٩) The Medieval Cambridge History, IV. P. 386.

الذي حسم في الموضوع كما سنرى عما قريب . أما البيزنطيون فكانوا يعتمدون في الدفاع على الموقع الحصين الفريد لعاصمتهم ومناعة أسوارها المزدوجة الضخمة ، والخندق العميق أمام السور الخارجي الممتد لستة أميال . ولم يهمل الأباطرة البيزنطيون أمر هذه الأسوار وظلوا يقوونها ، وكان آخر هذه التحصينات ما قام به يوحنا باليولوجوس الثامن بعد حصار مراد الثاني للمدينة .

وفوق ذلك فانه لمن الغرابة بمكان أن لا يخرج من سكان القسطنطينية البالغ عددهم أكثر من مائة ألف حسب رواية كبن الا ٤٩٧٠ مقاتل « رومي » على احصاء فرانزا البيزنطي . وإن دل هذا على شيء فانه يدل على جبن البيزنطيين كما ذكر فليلفوس المذكور آنفا ، أو على اعتمادهم على حصانة مدينتهم ومناعة أسوارها التي لا تقهر ، أو على العقائد الخرافية في حدوث المعجزات من القديسات لحماية عاصمتهم من « البرابرة الكفرة » (أي المسلمين) حسب زعمهم .

وانني أميل ازاء ما تقدم من الكلام الى الأخذ بالرواية الغربية عن القوات المدافعة للإجماع القديم والحديث عليها ، ولكونها كافية للعمليات الدفاعية من فوق الأبراج والأسوار ، وكانت هذه نقطة الدفاع الهامة بالنسبة للبيزنطيين .

وعلاوة على ذلك فإن الإمبراطور قسطنطين ، بعد توحيد الكنيستين الشرقية والغربية في احتفال رسمي بالقسطنطينية في

ديسمبر ١٤٥٢ م ، كان متأكدا من العون من البابا نيقولا الخامس ، ومن الدول النصرانية الأخرى بوساطته . وأتى بعض هذا المدد ، ولكن ليس في المستوى الذي كان يرجوه الإمبراطور الخائف أمام استعدادات الفاتح ، وبعد كثير من القلق والذعر . والحقيقة أن البابا كان قد تنبأ ، رغم اتحاد الكنيستين ، ببصيرته السياسية أن خراب القسطنطينية آت لا محالة ، فاكتفى بارسال مبعوثه الديني كاردينال ايسدور «Cardinal Isodor» في بعثة ، ثم بعض القوات البحرية المكونة من جنوده وجنود جنوا والبندقية والأسلحة والمواد التموينية بعد بدء الحصار بأسبوعين . أما الدول المسيحية الأخرى فكانت مشغولة بالخلافات بينها ، ثم أنها جربت القتال مرارا مع العثمانيين ، ولقيت الهزائم المتكررة على أيديهم .

وظلت المدافع العثمانية تدك أسوار المدينة لمدة أسبوعين ، ولكنها لم تنل فوائد ذات بال من هذه الأسوار الجبارة ، التي كان يصلح المدافعون الثغرات المحدثة فيها بكل همة ونشاط تحت قيادة جستنياني والإمبراطور نفسه ، اذ كان دوي المدافع العثمانية أكثر من تأثيرها التدميري . وعندما حاول الأتراك عبور الخندق بعد ملئها من الحطب والأحجار ، ودخول السور من ثغرة صغيرة في اليوم الثامن عشر تعرضوا للنار والحديد من السهام المحرقة والنار الإغريقية وقذائف المدافع البيزنطية ، كما فشلوا في تحطيم السلسلة الحديدية الجبارة التي أغلق بها مدخل خليج القرن الذهبي أمام السفن العثمانية الرابضة في بحر مرمرة .

وفي ٢٠ أبريل وصلت خمس سفن حربية من جهة البابا تحمل العتاد الحربي والمؤ ن ، وحدثت معركة بحرية بين الطرفين . وانهزم قائد البحرية العثمانية بلطه أوغلي ، ولم تستطع السفن العثمانية[٢٠] رغم كثرتها أن تمنع هذه السفن الحربية الكبيرة من العبور الى ميناء القرن الذهبي . وكان الفاتح يراقب بنفسه هذه المعركة من الشاطىء ، وكان جزاء بلطه أوغلي الإعدام لعدم نجاحه في المهمة المفوضة اليه .

وارتفعت بهذا الانتصار معنويات البيزنطيين ، ووثقوا بأن العثمانيين لا يمكنهم أن ينالوا من عاصمتهم من جهة البحر لعدم وجود قوة بحرية عثمانية في خليج القرن الذهبي . وهناك تفتقت عبقرية الفاتح بخطة فريدة لم تستعمل إلا مرة أو مرتين في تاريخ الحروب اليونانية القديمة ، وهي أنه قرر إدخال السفن العثمانية من ميناء بشكطاش العثماني (دولمه باغجه الحالي) في مضيق البوسفور الى القرن الذهبي عن طريق البر ، وركبت في سبعين سفينة عجلات صغيرة ، وفرشت مسافة ٣ أميال بالألواح الخشبية ، ودهنت هذه الألواح بالشحم ، وهكذا جرت هذه السفن عبر التل من جانب غلطه الى قاسم باشا في خليج القرن الذهبي تجاه الميناء البيزنطي ،

(٢٠) قدر عدد السفن العثمانية بين ٢٥٠ و ٣٥٠ سفينة ، ولكن معظمها كانت قوارب أو سفنا لحمل الجنود والبضائع ، ولم تكن فيها الا ١٢ سفينة حربية (الرشيدي ص ٩٣) .

وذلك في ليلة ٢١ أبريل ، ولإشغال الأعداء من الوقوف على هذه العملية المفاجئة أمر الفاتح بقذف شديد على أسوار المدينة طوال الليل كما تحالف مع الجنويين الذين كانوا يسكنون حي غلطة .

وفي صباح ٢٢ أبريل فوجىء البيزنطيون بمنظر السفن العثمانية في القرن الذهبي احدى نقاطهم الحصينة من جهة البحر ، فسقط في أيديهم .

وهكذا بدأ العثمانيون يهاجمون أسوار المدينة من ناحية البحر بالاضافة الى قصفهم لها من ناحية البر . وكان من حوادث الحصار الهامة اقامة الأتراك جسرا عائما من البراميل يصل بين بر الغلطة وبرميناء القرن الذهبي ، وإحباط محاولتين للعدو لإحراق السفن العثمانية في هذا الخليج .

وإزاء مقاومة البيزنطيين مقاومة مستميتة عن مدينتهم ، وخسائر العثمانيين الفادحة في الأرواح ، وفشل محاولاتهم لإيجاد ثلم واسعة في سور المدينة ، وإخفاقهم في العمليات البحرية نصح الوزير الأكبر خليل باشا المتواطىء مع الإمبراطور البيزنطي برفع الحصار ، ولم يقبل السلطان محمد محاولة الوزير العجوز الخائن ، بل قرر الاستمرار في الحصار ومضاعفة الجهود ، ووافقه القادة المخلصون أمثال زاغنوس باشا وغيره . ولجأ الفاتح الى عمليات عسكرية أخرى كنقب الأرض تحت الأسوار ، وإدخال جنوده من هذه الأنفاق المحفورة في عدة

مواضع . ولكن البيزنطيين عرفوا هذا ، وعندما وصل بعض الجنود إلى الطرف الآخر فوجئوا بالزيت المغلي والنار المحرقة تحرق وجوههم ، ومات هكذا مئات منهم . ولكن ازداد ذعر أهل المدينة من هذه العملية ، فبدأوا يخافون من ظهور الجند العثمانيين فجأة من تحت أقدامهم .

كما لجأ الفاتح الى تدبير آخر لتسلق جنوده السور ، فأمر ببناء برج خشبي ضخم ذي ثلاثة طوابق ، يجلس فيه الجنود مع آلات الحفر والنقب ، والآخرون بالأسلحة والسلالم وغطى هذه القلعة المتحركة على العجلات بجلود سميكة مبللة كي لا تؤثر فيها نيران العدو ، وقرب هذا البرج إلى إحدى البوابات ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل أيضا ، اذ احترق البرج أخيرا بقذائف البيزنطيين المحرقة والنار الإغريقية التي كان يرمي بها العدو من فوق الأسوار بشكل متواصل .

وهكذا بذل الجنود الأتراك أرواحهم بسخاء ، وقدموا تضحيات غالية دون أن يفت ذلك كله في عضدهم ، فإن السلطان محمد كان مع جنوده يشرف على العمليات العسكرية بنفسه ويشد من عزيمتهم ويمنحهم القوة والثقة بإرادته الصلبة وثقته بالنصر .

أما الجنود البيزنطية واللاتينية فقد نال منهم الكلال والتعب ، وضاقت الأرض على أهل المدينة أمام خطط الفاتح المتجددة ، وبلغ بهم اليأس والتشاؤم كل مبلغ رغم ثبات الإمبراطور البيزنطي والقائد العام جستنياني .

وحتى بعد اشتداد الضغط على العدو كان الفاتح قد أرسل صهره اسماعيل اسفنديار الى الإمبراطور ، يطلب منه تسليم المدينة ، ويعرض عليه إمارة تساليا يحكمها كتابع له ، حتى لا تتعرض العاصمة القديمة للخراب والدمار ، وأهلها لنقمة الجنود الأتراك الذين راح عدد كبير من أصحابهم ضحايا طوال الأسابيع العديدة . ولكن الإمبراطور فضل أن يموت مدافعا عن تاجه وعرشه وعاصمته . فقرر الفاتح الهجوم النهائي الأخير في ٢٩ مايو وقبل ذلك بيومين (الأحد ٢٧ مايو) أمر جنوده بأن يصوموا تطهيراً وتزكية للنفوس ، ويطلبوا العون من الله عزوجل . وفي مساء ذلك اليوم أوقدت النيران والمشاعل والقناديل في المعسكر العثماني فانقلب الليل إلى نهار في توهج شديد ، وتعالت صيحات المسلمين بالتهليل والتكبير ، والأناشيد الحماسية ودقات الطبول . وروعت هتافاتهم المتوالية المتصاعدة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » الأعداء وراء الأسوار ، الذين كانوا قد ظنوا في الأول أن حريقا كبيرا اندلع في معسكر الأتراك ، فهرولوا فرحين الى السور ، ولكنهم فوجئوا بمنظر رائع مروع .

واستمر الاستعداد في المعسكر العثماني في اليوم الثاني بهذه الطريقة ، يطوف الشيوخ والعلماء بين صفوف الجند ويقرأون عليهم آيات الجهاد ،وما أعد الله للشهداء من نعيم الجنة وحسن الجزاء. ويلهبون نفوس الجنود بقولهم « إن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم

نزل عند هجرته إلى المدينة في دار أبي أيوب الأنصاري ، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنا » . فتكاد قلوبهم تخرج من صدورهم للقاء العدو ، والوصول إلى ذلك المكان حيث يرقد الصحابي المجاهد الجليل .

وأما الجانب الآخر فكان يجري لديهم الحفل أيضاً ، ولكنه حفل تأبين أمام المصير المحتوم ، فإن الإمبراطور جمع أهالي المدينة في كنيسة أيا صوفيا ، ليقام فيها ابتهال عام وخرج أهل البلد كلهم في موكب ديني يحملون صور العذراء والصلبان، تسودهم الكآبة . وخاطبهم الإمبراطور الشجاع ، وحضهم على القتال ، مذكرا اياهم بأنهم سلالة صناديد أثينا وأبطال روما ، ولكن روح التسليم كانت قد سيطرت على نفوسهم فراحوا يكثرون من النحيب ، ويستغفرون إلى السيد المسيح والقديسين من خطاياهم ، وينتظرون ظهور العذراء لإنقاذ عاصمتهم .

وفي صبيحة اليوم التالي (٢٩ مايو في الساعات الأولى من الفجر بدأ الهجوم الإسلامي العام بدويٍّ هائل من هتافات التهليل ودقات الطبول في جميع جهات البر والبحر واستطاع المدافعون أن يصدوا هجومين أولين من جهة البر عند باب سان رومان أو طوب قبو (باب المدفع) ، وباب أدرنة . وانسحب الجنود العثمانيون بعد قتال ضار عنيف حسب مخطط الفاتح . وظهرت أروع صور البطولة من

جانبين في هذا القتال ، فالأتراك يحاولون الصعود بالسلالم الى السور ، والمدافعون بقيادة جستنياني الحازمة النشيطة يرمونهم من فوق السور بكل ما لديهم من الأسلحة والنار والحديد . إلى أن استطاع أحد الجنود الإنكشارية الضخم وهو حسن طوبال بالصعود مع رفاقه الثلاثين الفدائيين إلى أعلى السور أمام مطر منهمر من النبال والسهام ، وراح سبعة عشر من رفاقه ضحية هذه المحاولة البطولية الجريئة ، ومع أنه أصيب بقذيفة ، فظل يقاتل حتى قتل عندما انقض عليه عدد كبير من الجنود الأعداء . ولكنه مهد السبيل بدمه للآخرين من الجنود الأتراك ، فصعدوا بالسلالم فوق السور ، وكان الفاتح الشاب يدير هذا الهجوم الأخير بنفسه بعد أن اخترق الخندق على متن جواده جامبولات ، يحض جنوده ويشد أزرهم .

وأصيب في هذه اللحظة جستنياني بجرح في ذراعه ، فانسحب من موقعه فوق السور وركب توه سفينته الراسية في الميناء ، وغادر العاصمة الوشيكة السقوط الى جزيرة لمنوس . وتكاثر الجنود العثمانيون فوق السور ، واستطاعوا بعد مقتلة عظيمة أن يفتحوا البوابة الكبيرة (سان رومان) ، فاندفع إليه الجنود المهاجمون كالسيل ، كما رفرفت الأعلام العثمانية من على السور من جهة باب أدرنة[٢١] ، وكذلك من جهة السور المواجه للقرن الذهبي ، وجرى

---

(٢١) وليس بصحيح ما يذكره بعض المؤرخين المحدثين والمعاصرين امثال هامر وبيرز وشلانبرجيه وبرنارد لويس انه أهمل البيزنطيون اغلاق باب صغير=

قتال عنيف إثر ذلك في شوارع المدينة ، وسقط قسطنطين دراغاسيس آخر أباطرة بيزنطة صريعا كما سقطت عاصمته العتيدة للفاتحين الأتراك ، ليكتب التاريخ فصلا جديدا في عظمة هذه العاصمة المتداعية في عهدها الإسلامي المجيد .

وبعد ظهر هذا اليوم (٢٩ مايو ١٤٥٣ م) دخل السلطان محمد راكبا جواده الأبيض جامبولات المدينة المفتوحة ، وتوجه الى كنيسة آيا صوفيا العظيمة حيث كان كثير من أهالي المدينة قد تجمعوا خوفا على أرواحهم ، ففتحت أبوابها للفاتح المسلم ، وفوجىء الأهالي المذعورون باذن الفاتح في الاستمرار لصلاتهم ، ثم عفا عنهم . وحولت آيا صوفيا الى جامع ، وارتفعت من فوق سطحها أصوات « الله اكبر » وأدى فيه أول صلاة الجمعة . ويروي المؤرخون الأتراك أن الفاتح بعد دخوله إلى المدينة ظافراً ترجل ، وسجد على الأرض شكراً لله الذي أنعم عليه بهذا الفتح ، وصدق فيه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « لتُفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير اميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش »[٢٢] .

= خفي للمدينة يعرف بباب السيرك Cerca Porta ولمحه بعض الجنود الانكشارية ، فدخلوا منه ، وأخذوا المدافعين على غرة ، وهكذا تم لهم النصر . إذ لم يشر اليه الا مؤرخ يوناني واحد وهو دوكاس ، وكان بعيدا عن ميدان المعركة بخلاف فرانزا الذي شهد القتال ، ولم يذكر هذا الحادث .

(٢٢) روى هذا الحديث في عدد من كتب السنة كمسند الامام أحمد بن حنبل =

ومنع بعد ذلك من نهب المدينة التي كان قد أباحها لجنوده لثلاثة أيام قبيل الهجوم الأخير تحميسا لهم حسب المعهود في الحروب في ذلك الزمان ، ولكنه فدى كثيرا من كبار الأسرى من ماله الخاص . وعلى هذا فليس بصحيح ما يرويه كبن وغيره من مؤرخي الفرنج من التقتيل الفظيع والنهب الشامل للمدينة فإن هذا الأمر يعارض سياسة الفاتح في إعمار هذه المدينة من جديد . وقد يكون جرى بعض هذا القتل والأسر والنهب إزاء المقاومة التي أبداها سكان المدينة ، وانتقاما لما قتل من الجنود الأتراك في حوادث الحصار . ولكنه لم يكن بشيء اذا قارناه بما جرى على أيدي الصليبيين عند فتحهم لمدينة القدس ، وما حدث في القسطنطينية نفسها في احدى الحملات الصليبية المعروفة قبل فتح المسلمين لها بقرنين ونصف قرن . أما ما قاله كبن (ونقل عنه الأستاذ عنان في مقاله المذكور سابقا) من قتل الفاتح لدوق نوتاراس في حفلة ماجنة فحديث خرافة ، ولا يتصور ذلك من سلطان يأمر جنوده بالصيام قبيل المعركة بشهادة كبن نفسه .

وعندما دخل الفاتح الى قصر الإمبراطور ، ردد في تأمل صوفي ، وهو يشعر بفناء مفاخر الدنيا الزائلة ، ردد قول الشاعر الفارسي :

= والجامع الصغير للسيوطي ، وانظر ، الأقسكي ، المصدر المذكور ص ٢١ .

العنكبوت تنسج خيوطها في قصر القياصرة
والبوم يسمع صداه على قباب الأكاسرة

وأرخ هذا الفتح (بحساب الجمل) بجملة قرآنية لطيفة « بلدة طيبة »[٢٣] (٨٥٧ هـ) وعمت بشائر الفتح في جميع العالم الاسلامي ، اذ كتب الفاتح الى السلطان المملوكي الأشرف اينال، وإلى شريف مكة ، وشاه فارس ، كما أرسل اليهم بعض الهدايا من الغنائم والأسرى . وأقيمت في مصر الزينات والاحتفالات لمدة ثلاثة أيام ابتهاجا بهذا الفتح حسب كلام المؤرخ المصري ابن تغري بردي .

لقد أطلنا الكلام في أمر هذا الفتح وفي حوادث الحصار ، لنبين أنه لم يكن أمرا سهلا كما يحلو لبعض المؤرخين أن يصوره ، بسبب ضعف الدولة البيزنطية ، والانشقاق الكنسي في الشرق والغرب ـ الذي جعل كثيرا من سكان المدينة يرددون القول مع الدوق نوتاراس أنهم يفضلون العمامة التركية على طاقية البابا ـ والجيوش العثمانية الجرارة ، فجعل كل ذلك القسطنطينية لقمة سائغة للغزاة الأتراك . بل الحق أن الجنود العثمانيين بذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل هذا الفتح ، وقاموا بالتضحية والفداء حتى تم لهم النصر المبين . كما أن السلطان الفاتح أعد كل ما كان يمكن من الوسائل العسكرية

---

(٢٣) وذلك بحساب تاء مربوطة كتاء مفتوحة .

الناجحة ، ولم يشك لحظة في ثقته بالنصر حتى تم له هذا الفتح . . . وصدق المؤرخ الفرنسي الشهير كارا دي فو «Carra de Vaux» في قوله في هذا الصدد : « ان هذا الفتح لم يتيسر لمحمد الفاتح اتفاقا ، ولا تيسر بمجرد ضعف الدولة البيزنطية بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم له ما كان في عصره من قوة العلم »[٢٤] .

وفي كلمة المؤرخ المعاصر قريتوبولس[٢٥] الموجزة :
« المدافع قررت كل شيء »[٢٦] .

وكان من آثار هذا الفتح أن اتحد كلا القسمين الجنوبي والشمالي أو الآسيوي والأوربي للدولة العثمانية . . . وتحولت العاصمة العثمانية من أدرنة إلى القسطنطينية التي سميت في العهد العثماني بأسماء : اسلام بول (أي مدينة الإسلام) ودار السعادة ، واسمها الرسمي الآستانة ، وفي العهد الكمالي قرر اسمها رسميا استنبول .

وأصبحت القسطنطينية بعد ذلك قاعدة للأعمال العسكرية في

---

(٢٤) الأمير شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ٢٢٠ نقلا من كتاب « مفكرو الاسلام » تأليف كارادي فو .
(٢٥) هكذا رسم المؤرخ التركي زكي وليدي هذا الإسم في ترجمته لكتاب كريتوبولوس .
(٢٦) The Camridge Medieval History, Vol. IV, P. 386.

الشرق والغرب ، وسهل للعثمانيين أن يمدوا نفوذهم وسيادتهم الى شواطىء البحر الأسود الشمالي وكييف (حاليا في روسيا) والى المجر واليونان ، وألبانيا وسواحل البحر الأدرياتيكي الشرقية ، والى شرقي البحر الأبيض المتوسط .

وكان من آثاره بالنسبة لأوربا الغربية وخاصة ايطاليا أنها أفادت من العلماء اليونانيين الفارين اليها من القسطنطينية والجزر القريبة منها في حركة النهضة Renaissance الأوربية التي كانت قد بدأت في أواخر القرن الرابع عشر بترجمة التراث اليوناني الى اللاتينية . ويعتبر بعضهم سقوط القسطنطينية بداية لعصر النهضة ، وهو قول غير دقيق ومبالغ فيه . أما اللورد اكتن Lord Acton أستاذ التاريخ الحديث في كمبردج في أواخر القرن التاسع عشر فقد جعل الفتح العثماني هذا بداية للتاريخ الحديث[٢٧] ، وهو يقصد بالطبع تاريخ أوربا الحديث .

فتح صربيا والبوسنة والهرسك وضمها الى الدولة :

كان فتح القسطنطينية حدثا عظيما بعيد الأثر في مصير الدولة العثمانية في أوربا فانها أصبحت الآن وريثة للإمبراطورية البيزنطية ، وكان للعثمانيين على كثير من أجزاء البلقان سيادة اسمية ، ولكنها كانت سيادة مزعزعة تقوى حينا وتضعف حينا آخر ، وذلك لأن

---

(٢٧) Lord Acton, Lectures on Modern History, P, 45.

العثمانيين بعد اخضاع هذه البلاد كانوا يقرون عليها أمراءها ، ويقبلون منهم التبعية لهم ودفع الجزية سنويا ، وكان هؤلاء الأمراء يستغلون الفرص المواتية فيتآمرون مع دولة المجر أو مع البابا ، ويعلنون استقلالهم عن العثمانيين . ولكن بعد أن تم فتح القسطنطينية التي كانت بمثابة مفتاح أوربا الشرقية سهل الطريق لتوطيد سيادة العثمانيين على البلقان ، وبدأت تتكون إمبراطوريتها حقا ، وسهل على الفاتح إخضاع البلاد الصربية واليونان والأفلاق وشرق جزيرة القرم والجزر الرئيسية في بحر ايجه وإلحاق بعضها الى الدولة وتم كل ذلك خلال بضعة وعشرين عاما . . ولم يزد خلفاؤه شيئا ذا بال على فتوحاته في أوربا ، الا بلغراد والمناطق المجاورة لحدود النمسا الجنوبية وجزيرة ردوس في عهد سليمان القانوني .

كانت بعض أجزاء صربيا تحت سيطرة العثمانيين والبعض الآخر تحت سيادة المجر ، وكان أمير صربيا إذ ذاك جورج برنكوفيتش الذي أجلسه العثمانيون على إمارة صربيا بعد أن قبل دفع الجزية السنوية لهم ، ولكن لم يكن مخلصا في تبعيته لهم ، بل كان يداريهم ويتربص بهم ، أو كما قال السلطان محمد الفاتح «يظهر الصداقة ويبطن العداوة» . ولما أتته رسل يوحنا هنيادي الذي عرض عليه الاشتراك في الحلف الذي سيعقد ضد الفاتح الذي عظم خطره على أوربا بعد فتح القسطنطينية ، وافق على هذا التحالف . وعلم السلطان محمد الفاتح عن هذا التحالف فزحف على صربيا ،

واستولى على معظم مدنها في ربيع ١٤٥٥ م بينما هرب جورج برنكوفيتش الى المجر ليعود مع هنيادي لمقابلة العثمانيين . ولم يبق أمام السلطان محمدالفاتح الا بلغراد باب المجر ، وأفزع زحفه دولة المجر والدول النصرانية الأخرى في تلك المنطقة كما أخاف هذا الزحف البابا ، فأرسل البابا رسله الى مختلف البلدان الأوربية ، ألمانيا وفرنسا واسبانيا للدعوة الى شن حملة صليبية . وكان الذي يبث هذه الدعوة يلقى حماسا في نفوس عامة المسيحيين في مختلف الأقطار النصرانية ضد الأتراك الوثنيين حسب زعمهم ، وليس هذا فقط بل شرع الباب صلاة خاصة عرفت بصلاة التبشير لطلب النصر ضد الأتراك كما أمر بضرب نواقيس الكنائس صباح كل يوم ، وسماه ناقوس الأتراك اي نذيرا من خطرهم ، وأذاع نداءً إلى جميع النصارى للاتحاد ضدهم . وتكون هذا الحلف الصليبي ، تحت قيادة يوحنا هنيادي ، من ملوك المجر وبولندا وألمانيا والبندقية وجنوا وغيرهم من أمراء النصرانية . ولم ينتظر الفاتح تحرك قوات هذا الحلف بل بادر وزحف الى بلغراد أحصن وأمنع مدن أوربا الشرقية في ٥٠ ألف مقاتل في سنة ١٤٥٦ م ، وحاصرها من جهة البر ومن جهة نهر الدانوب ، ولكن هنيادي استطاع أن يمزق الأسطول العثماني الرابض في الدانوب ، وكذلك فشل الهجوم الأول على أسوار بلغراد من جهة البر في يوليو من هذه السنة. ثم عاود محمد الفاتح الهجوم في شهر أغسطس من نفس السنة . وبينما كان السلطان يقاتل بنفسه عند أسوار المدينة أصيب بجرح بالغ ، واضطر بعد قتال مرير وخسائر عظيمة إلى أن يرفع

الحصار ، ويعود إلى أدرنة بسبب البرد القارس . وبرز يوحنا هنيادي مرة أخرى كبطل للنصرانية ، وفرحت الدول الأوربية بهذا الانتصار ، وأخذوا يوم ٦ أغسطس عيداً لهم ولكن من حسن حظ العثمانيين مات هنيادي بعده بعشرين يوما ، أو قتل وهو يحاول انقاذ بلغراد على قول المؤرخ البلجيكي بيرين[٢٨] . وكان سبب اخفاق العثمانيين في هذا الحصار أنهم لم يكونوا قادرين على جر المدافع الثقيلة الى تلك المسافات البعيدة عبر صربيا .

وانصرف السلطان محمد الى فتح جزيرة المورة . واضطربت أمور صربيا بعد موت ملكها جورج برنكوفيتش بسبب الخلافات العائلية بين أولاده وزوجته . وحسما للنزاع والقلاقل المستمرة رأى الفاتح إلحاق صربيا الى الدولة فضمت في سنة ١٤٥٩ م الى ولاية سمندره العثمانية في البلقان .

وبعد ذلك أعاد محمد الفاتح فتح البوسنة «Bosnia» المجاورة لصربيا، وفتح مدنها وقلاعها قلعة قلعة، وفي منتصف سنة ١٤٦٣م كانت البوسنة كلها قد أصبحت ولاية عثمانية مرة أخرى ، ولم تجد ملك البوسنة النداءات التي وجهها الى البابا لطلب العون ، واضطر أخيراً إلى طلب الأمان من العثمانيين ، ثم قتل بعد ذلك لحبكه المؤامرات وغدره ، بينما اعتنقت أرسقراطيتها الإسلام طواعية ، ثم

---

(٢٨) Jacques pirenne, The Tides of History, Vol. ii, P. 317.

لعبوا دوراً كبيراً في معارك الحدود الشمالية[29] .

واتجه السلطان محمد بعد ذلك الى الهرسك «Herzgovina» وكان فتحها ضرورة حربية لمناعة حصونها من جهة ، ولموقعها الاستراتيجي الهام من جهة أخرى ، حيث أنها تشرف على البحر الإدرياتيكي . واستسلم أمير هذه البلاد لقائد السلطان محمد الفاتح وهو محمود باشا الوزير الأعظم . وقسم الهرسك الى قسمين ، القسم الأهم أدمج في الدولة العثمانية ، وأبقى الأمير الهرسكي على القسم الآخر ، وبعد موت هذا الأمير ضم هذا القسم أيضاً الى الدولة العثمانية .

فتح اثينا والمورة والجزر اليونانية في بحر ايجه :

كانت أثينا تحكمها أسرة اكسيولي الإيطالية من فلورنسا ، وكانت تدفع للدولة العثمانية جزية سنوية ، وبعد موت حاكمها نيريو اكسيولي في ١٤٥٣ م اضطربت الأحوال في أثينا لعدم وجود خلف قوي له ، اذ كانت زوجة نيريو تحكم البلاد كوصية على ابنه القاصر . ولكن سلوكها الشخصي المشين وسوء تصرفها في شئون البلاد أثار غضب أهل أثينا الذين خافوا أن تقع البلاد تحت حكم عشيق الملكة من البندقية ، فلجأوا الى السلطان محمد الفاتح الذي كان قد برز في ذلك الوقت كفاتح للقسطنطينية ، وسألوه أن

---

(٢٩) ويعرف هؤلاء المسلمون بالبشناك ، وفي ليبيا بقايا لبعض الأسر منهم .

يساعدهم بتعيين ابن أخ للأمير السابق على عرش البلاد . وبالطبع لم يكن يريد محمد الفاتح أن تخضع اليونان لدولة البندقية البحرية القوية ، فلبى نداءهم . ولكن هذا الحل لم يضع حداً للخلافات بين أفراد الأسرة المالكة وبين الأثينيين فقرر السلطان الفاتح ضمها الى دولته . ووجه جيشا بقيادة عمر بن طرخان الذي استولى على أثينا في سنة ١٤٥٦ م .

وقد زار السلطان محمد أثينا بعد سنتين من فتحها عند عودته من المورة فأعجب بآثارها وخاصة معبد أكروبول أوبارثينون «Parthenon» . وأمضى فيها عدة أسابيع وعطف على أهلها وأغدق عليهم العطايا ، ولم يمس روائع الفن اليوناني في البناء بسوء . وبخلاف ذلك عندما دخل البنادقة أثينا بقيادة قائدهم مورسيني ، دمروا بمدافعهم كثيرا من هذه الروائع وخاصة معبد الأكروبول . ثم سرق من هذا المعبد الشهير السفير الانجليزي لورد إلجن «Lord Elgin» في القرن ١٩ التماثيل الباقية الرائعة التي كانت تزين جدارنه . وهي الآن في قاعة خاصة بالمتحف البريطاني في لندن . ويقول فنلي Finlay مؤلف كتاب تاريخ اليونان « كان اليونانيون قد ضاقوا ذرعا بالحكام المستبدين في أثينا ، ومتعصبي الكنيسة البابوية فاستقبلوا الحكم العثماني بفرح وابتهاج » . ومثل ذلك يقول اللورد اكتن «Acton» : أن تسامح العثمانيين في الأمور الدينية جعل أهالي البلقان واليونان من أتباع الكنيسة الشرقية يقبلون الفاتحين الأتراك

عن طيب خاطر(٣٠) .

أما المورة أو جنوب اليونان فكانت تابعة لدولة بيزنطة . وكان يحكمها أخوان لقسطنطين الحادي عشر ، آخر أباطرة القسطنطينية . وأدت المنافسة والشقاق بين الأخوين الى اضطراب الأمور في البلاد ، وبالإضافة الى ذلك فانه كانت تقيم فيها جالية ألبانيا ، تشجعت بانتصارات الزعيم الألباني اسكندر بك على العثمانيين في ألباينا ، فبدأ هؤلاء يعيشون فساداً في البلاد ، بل كادوا أن يستولوا على حكمها منتهزين فرصة التنافس والإنشقاق بين الأخوين . ولم يكن يرضي هذا الأمر السلطان محمد الفاتح . فأمر قائده عمر بن طرخان بالقضاء على ثورة الألبانيين، وإنقاذ الحاكمين البيزنطيين من حصارهم ، وبالفعل نجح هذا القائد في مهمته في ١٤٥٦ م . ولكن ساءت الأمور من جديد بعد عودته الى أثينا ، فاضطر السلطان محمد الفاتح أن يزحف اليها بنفسه في مايو ١٤٥٨ م ليضع حداً للفوضى والاضطراب ، وأطماع الألبانيين . وفتح مدنها مدينة مدينة ، فتم فتح جميع المورة وضمت الى الدولة العثمانية في ١٤٥٩ م .

كان الجنويون يحكمون الجزر الست الكبرى لمنوس ولسبوس وفسبوس وغيرها الواقعة قبالة مضيق الدردنيل في بحر ايجه ، غير بعيد عن شواطىء الدولة العثمانية الغربية . وكانت هذه الجزر

---

(٣٠) Lord Acton, Lectures on Modern History, P. 45.

ملاذاً لقراصنة البحر من جهة ، ومراكز لمؤامرات الكنيسة البابوية ضد الدولة العثمانية من جهة أخرى . فرأى السلطان الفاتح إخضاع هذه الجزر والسيطرة على بحر إيجه لتأمين حدود دولته الغربية من أطماع الدول البحرية كالبندقية وجنوا . وتم فتح جميع هذه الجزر بين سنوات ١٤٥٥ ـ ١٤٦٢ م بعد معارك بحرية طاحنة .

فتح البانيا والافلاق والبغدان :

كان اسكندر بك الالباني زعيما وطنيا شجاعا، واستطاع أن يهزم الجيوش العثمانية من مواقعه الجبلية الحصينة في ألبانيا في عهد مراد الثاني والد السلطان محمد الفاتح . واستمر يقاوم كذلك الحملات التي وجهها الى ألبانيا السلطان الفاتح بعد فتح القسطنطينية ، ولكن قوته بدأت تضعف شيئا فشيئا كما أن السلطان الفاتح احتاج الى فترة راحة لينصرف الى إخضاع الجزر اليونانية ، فعقدت بين الطرفين هدنة في ١٤٦١ . ولكن لم تدم هذه الهدنة لأكثر من ثلاث سنوات ، اذ دعا البابا بيوس الثاني الى شن حملة صليبية على العثمانيين ، واستطاع رسوله أن يحمل اسكندر بك على نقض الهدنة . ولم ينتظر هذا الزعيم الألباني وصول الجيوش الصليبية بل بادر الى الإغارة على أملاك الدولة العثمانية ثم هزم الجيوش العثمانية التي وجهها اليه السلطان محمد الفاتح مرتين . ولم يجد السلطان محمد الفاتح بدا بعد فشل قواده من أن يخرج بنفسه ، فزحف بجيش كثيف من مائة ألف جندي في ١٤٦٥ م ، واستعاد بعض القلاع في ألبانيا . وتجنب اسكندر بك لقاء

هذا الجيش الضخم في معركة مكشوفة . فغادر عاصمته كرويا بعد أن ترك بها حامية قوية الى بعض القلاع الجبلية المنيعة ، حيث بدأ ينقض منها بين فترة وأخرى على ساقة الجيش العثماني ، ويفتك به . ورأى السلطان الفاتح أن الحصار سيطول ، كما استوجبت ظروف الأناضول الطارئة عودته اليه ، فترك قائده بالابان في حصار كرويا . واستطاع اسكندر بك أن يحصل على المساعدات من البندقية فألقى الهزيمة مرة أخرى على الجيش العثماني عن طريق الهجوم المباغت من الخلف .

وخلاصة الأمر أن البانيا لم تخضع بكاملها لحكم العثمانيين الا بعد موت اسكندر بك الألباني في سنة ١٤٦٧ م موتا طبيعيا .

وكان اسكندر بك بجانب يوحنا هنيادي بطلا شجاعا ومقاوما عنيدا وزعيما مخلصا ، ومقاومته المستمرة أدت الى توقف الزحف العثماني ، وأقامت سدا في تقدمهم نحو الشمال كما سدت مقاومة هنيادي الطريق على العثمانيين الى المجر لمدة طويلة .

تقع الأفلاق والبغدان « Wallachia and Moldavia» الرومانيتان شمال نهر الدانوب تحيطها ثلاث دول كبيرة بولندا والمجر والدولة العثمانية . فكانتا بحكم الموقع الجغرافي الذي تشغلانه تحالفان هذه الدولة تارة وتلك تارة أخرى حسب ما يتراءى لها ، وحسب ما توحي به الظروف ، كما أنهما ما كانتا تكفان عن الخصام فيما بينهما . وكان أول اتصال للعثمانيين بهذه البلاد في عهد السلطان بايزيد ، وقد أخضع الافلاق الجنوبية ، لسيادة العثمانيين في نهاية القرن ١٤ م . ومنذ ذلك

الوقت أصبحت هذه الإمارة حليفة للعثمانيين تدفع لهم جزية سنوية . وفي عهد السلطان محمد الفاتح كان يحكمها رجل سفاك للدماء ، شديد البطش ، غليظ القلب ، يفوق السباع في القسوة والوحشية وهو دراكول . وكان أهل البلاد يلقبونه بالشيطان(٣١) . فنقض المعاهدة المعقودة السابقة مع العثمانيين ، وبدأ بشن الهجمات على ممتلكاتهم وإرهاب الجنود الأتراك عن طريق أشد أنواع التعذيب ، اذ كان ينصب خوازيق عالية من الحديد في السهول ، ويركبهم عليها وهم أحياء فيموتون بألم لا يوصف . وكان يلجأ الى حرب العصابات وهزم عدة جيوش عثمانية نظامية ثم انهزم في ١٤٦٢ م ، وأقام العثمانيون أخاه رادول على عرش الأفلاق . ولكن دراكول عاد الى بلاده من جديد ، وأخيرا قتل في ١٤٧٦ م غيلة على يدأحد عبيده ، وذلك لجرائمه البشعة التي تشمئز منها النفوس . وطيف برأسه في البلاد .

أما البغدان أو مولدافيا فكان يحكمها أمير يسمى اشتيفان الأكبر ، وقد حارب ملك المجر والتتار وأحرز انتصارات عليهم ، كما انه ألقى هزيمة على الجيش العثماني في ١٤٧٥ م . . . بقواته المكونة من حلفائه المجر وبولندا . وقد قام السلطان محمد الفاتح بنفسه بالهجوم على مولدافيا في ١٤٧٦ م وألقى هزيمة شنيعة على خصمه ، ففر الى بولندا منهزما . ثم عاد مع جيوش جديدة الى إمارته مرة أخرى ، ولكنها خضعت نهائيا لنفوذ العثمانيين بعد موته في ١٤٨٤ م ، في عهد بايزيد

---

(٣١) Lane — Poole, Turkey, P. 92.

الثاني ، ووصيته لابنه أن يعلن لهم الخضوع ، ويدفع الجزية .

الصراع مع اوزون حسن والفتوح في آسيا الصغرى ومنطقة البحر الاسود :

بقيت في أطراف آسيا الصغرى في الجنوب والشرق بعض الإمارات المستقلة التي لم تخضع للسيادة العثمانية الى عهد السلطان محمد الفاتح ، وهي إمارة قرمان في الجنوب وإمارة قزل أحمد أو قسطموني التركية ، وإمبراطورية طرابزون المسيحية وإمارة سنوب «Sinope» في الشمال الشرقي أو ساحل البحر الاسود الجنوبي .

وكانت هذه الإمارات مراكز لمؤامرات المنافسين ضد الدولة العثمانية . وكثيراً ما تحالفت مع القوى النصرانية ضدها . وعلى رأسها إمارة قرمان الجنوبية . وتوجه اليها الفاتح بحملة قوية قبل فتح القسطنطينية ، فأخضع حاكمها القرماني لسيادته ، ثم في سنة ١٤٧١ م قضى على وجودها نهائيا ، وضمها الى الدولة حسب مخططه في توحيد آسيا الصغرى . وهكذا انتهت مشكلة هذه الإمارة التي طالما رفعت السلاح ضد الدولة العثمانية منذ نشأتها الى بداية عهد الفاتح .

وفي سنة ١٤٠٦ م خضعت إمارة قسطموني طواعية لمحمد الفاتح . وفي أوائل سنة ١٤٦١ م بعد عودته من أوربا توجه الفاتح الى أماصرة ، المستعمرة الجنوية الغنية ، على شاطىء البحر الأسود شمال الأناضول ، وبحركة سريعة مباغتة داهم هذه المدينةفاستسلمت له

دون مقاومة . وبعد ذلك تنازل له أمير سنوب اسماعيل عن امارته في نفس السنة ، وذلك بطريقة دبلوماسية دون أن يضطر الفاتح الى إراقة قطرة من الدماء . وعوضه الفاتح ببعض المناطق في الاناضول ، وعين ابنه حسن حاكما على سنجق بولي . وعاش اسماعيل مكرما معززاً في مدينة فلبه في روملي .

أما إمبراطورية طرابزون المكونة من مدينة طرابزون أو طرابزندة الساحلية شرقي سنوب فكان يحكمها آل كومنين من أسرة أباطرة بيزنطة ، منذ أمد بعيد . . . وكانت هذه الإمارة قد أصبحت في هذه الآونة أي بعد سقوط القسطنطينية وكرا للمؤامرة الكبرى ضد الدولة العثمانية بتحريض من البابا ، واشتركت في هذه المؤامرة قوتان كبيرتان : الأمير أوزون حسن[٣٢] ، صاحب الدولة التركمانية في أرمنية واذربيجان ، والبندقية . فكان أوزون حسن ، الأمير التركماني من تركمان آق قيونلي[٣٣] ، كان يريد أن يمد نفوذه شرقي الأناضول . وكانت البندقية تريد أن تسخر أوزون حسن وامبراطور طرابزون ،

---

(٣٢) انظر عنه مقال مينوروسكي في دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية ج ٥ ص ٢١٣ - ٢٢٣) .

(٣٣) ينقسم التركمان الى فرعين رئيسيين قره قيونلي أو أصحاب الخراف السود ، وكانوا يحكمون مناطق تركستان على حدود الصين في هذه الآونة ، وآق قيونلي أو أصحاب الخراف البيض ، وزعيمهم أوزون حسن ، وكانوا يقطنون حول بحر قزوين شمالي ايران .

داود «David» لضرب الدولة العثمانية من الخلف ، بينما هي تحاربها في البحر في الجبهة الأمامية ، أي في البحر الإدرياتيكي وسواحل دلماشيا . وكان داود إمبراطور مدينة طرابزون يحلم بأن يستولي بمساعدة هاتين الدولتين على القسطنطينية ، ويصبح وريثا شرعيا لدولة بيزنطة المنهارة . وتوطدت العلاقات بين أوزون حسن وإمبراطور طرابزون بزواج الأول بأخت هذا الإمبراطور ، وتبودلت السفارات بين هذه الدول الثلاث وبين البابا أيضا .

وأسرع السلطان بعد نجاحه في سنوب نحو أرضروم ، ليحول دون وصول الإمدادات من قبل أوزون حسن الى طرابزون . وخاف أوزون حسن من هذا الزحف المفاجىء ، فأرسل والدته سارة خاتون سفيرة الى الفاتح ، فاحتفى بها السلطان ، وعرض على أوزون حسن عقد الصلح على أن يكف عن مساعدة إمبراطور طرابزون ، فقبل أوزون حسن هذا العرض .

وهكذا بعد الإطمئنان من ناحية أوزون حسن سارع الفاتح الى طرابزون ، بينما توجه الأسطول العثماني من ناحية البحر لحصار المدينة والحيلولة دون المساعدات من ناحية الكرج وسواحل البحر الأسود الشمالية . وبهذا وقع حاكم طرابزون في الفخ ، ولم يسعه الا التسليم دون أن يتجرأ على المقاومة . وقدم ابنته آن ليتزوج بها الفاتح ، وعفا عنه الفاتح . وعاش داود بعد ذلك في ادرنة ، ولكنه أعدم بعد مدة لتآمره من جديد مع البندقية والبابا . وهكذا تم الاستيلاء على

طرابزون في أواخر ١٤٦١ م ، وقضى الفاتح على المؤامرة الكبرى التي كانت قد دبرت ضده ، كما تم بهذا الفتح توحيد جميع آسية الصغرى تحت لواء الدولة العثمانية وخاصة بعد أن قضى الفاتح على البقية الباقية من قرمان في السنوات التالية .

ولكن أوزون حسن المحارب الطموح والسياسي المتقلب ظل بسياسة الغدر وانتهاز الفرص يثير القلاقل في وجه الفاتح ، فتوطدت علاقاته مع البندقية ، والتي استقبل سفيرها في بلاطه في ١٤٦٣ م ، كما أنه تودد الى سلطان مصر المملوكي ليتحالف معه ضد الدولة العثمانية . وبعد انتصاراته على ملوك فارس والعراقين وخراسان من أسرة المغول في سنتي ١٤٦٧ و١٤٦٩ م وامتداد ملكه الى بلاد ما وراء النهر ازدادت أطماعه ، وبدأ يتطلع الى ممتلكات الدولة المملوكية المصرية في الشام ، بعد أن ظهر ضعف هذه الدولة في الصراع الذي حدث بين مصر وبين شاه سوار حاكم إمارة ذي القدر والمتحالف مع محمد الفاتح ، وانهزم الجيش المصري المملوكي أمام شاه سوار .

واتخذ أوزون حسن سياسة الاستفزاز والتهديد ضد الفاتح بعد انتصاراته الآنفة الذكر ، وبعد توثيق روابطه مع البندقية ، وأمير قرمان (الذي لم يقض عليه الفاتح نهائيا بعد) ، هاجم مدينة توقات العثمانية شرقي الأناضول في طريقه الى إمارة ذي القدر ، وأنزل بها الحريق والدمار . وعندئذ جد الفاتح في قتال هذا الامير الذي تلقب بلقب السلطان ، والذي طالما راوغ وهدد الدولة العثمانية بالغزو ،

وتحالف مع أعداء الاسلام من القوى الأوربية . فكلف الفاتح ابنه الأمير مصطفى بايقاف زحفه ، وألقى الأمير مصطفى هزيمة منكرة على ابن أوزون حسن في سهل قونية في أغسطس سنة ١٤٧٢م وأسره.

وتعدى جيش أوزون حسن الثاني على الممتلكات المصرية بجوار حلب ، بل بلغ به الطمع والجرأة الى أن أرسل بعض جنوده كحجاج الى الحجاز في موسم الحج عام ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) حيث نجح هؤلاء في إجبار حاكم المدينة المنورة أن يخطب على منابرها لأزون حسن « الملك العادل حسن الطويل[٣٤] خادم الحرمين الشريفين » . وكان هؤلاء الجنود التركمان يريدون أن يقوموا بمثل هذه الحركة في مكة ولكن أميرها التابع لسلطان مصر ، بادر ولاقاهم خارج مكة وألقى القبض على رؤسائهم وبعث بهم الى مصر . . وظهرت للسلطان قايتباى الآن نوايا أوزون حسن الحقيقية ، فكف عن معارضة الفاتح في قضية إمارة ذي القدر، وتعاون معه وخاصة عندما لاحظ ان الفاتح جاد في محاربة هذا العدو الشرس الغادر .

وفي مارس ١٤٧٣ م خرج الفاتح بنفسه في جيش ضخم نحو سيواس لملاقاة عدوه في معركة فاصلة ، وألقى عليه هزيمة ماحقة في معركة ترجان عند أعالي الفرات في هذه السنة ، ومزق جيشه شر ممزق ، ولاذ أوزون حسن بالفرار . . . ولم يلاحقه الفاتح رغم إلحاح

---

(٣٤) وهي ترجمة لكلمة أوزون التركمانية .

بعض قواده وأبنائه لأنه كما قال لم يكن من سياسته تقويض الممالك الإسلامية . وانما قصد من محاربته كف أذاه ، وهذا ما نجح فيه بعد انتصاره الحاسم الأخير على هذا العدو ، الذي ثار عليه بعض قواده وأقاربه بعد ذلك بقليل ، ثم وضع موته حدا لتهديداته لكل من الدولة العثمانية ومصر .

وبعد دحر خصمه القوي أوزون حسن ، وتوحيد آسية الصغرى ، وبسط السيادة على جميع ساحل البحر الأسود الجنوبي ، وجه محمد الفاتح عنايته نحو الساحل الشمالي للبحر الأسود . وكانت في هذه الساحل بعض المستعمرات الجنوبية الهامة ، وكانت جنوا بواسطتها تسيطر على تجارة البحر الأسود منذ القرن الرابع عشر ، بينما كان يحكم داخل شبه جزيرة القرم أو القريم Cremia خانات التتار المسلمون ، وكانوا في نزاع فيما بينهم في هذه الأونة ، فطلبوا العون من الفاتح لحل النزاع . ولقد خاف السلطان أن يستغل الجنويون هذا النزاع ، ويتدخلوا في شؤون مملكة خانات التتار . كما أنه لم يكن من الطبيعي أن يقبل الوجود الجنوي في هذه المنطقة ، وسيطرتهم على مصادر الثروة فيها ، وخاصة مدينة كفه[٣٥] Caffa البحرية والتي كانت تدعى القسطنطينية الصغيرة لغناها ومناعتها .

فوجه الفاتح وزيره الأكبر أحمد كدك باشا (أو أحمد الأثرم

---

(٣٥) يخلط بعضهم ، ويرسمون اسمها كييف ، والحقيقة ان كييف Kiev مدينة في اوكرانيا .

بالعربية) في حملة بحرية قوية في ١٤٧٥ م . واستلمت له كفه بعد أربعة أيام من الحصار والقتال ، وقضى على الوجود الجنوي في سواحل القريم . وبعد ذلك استولى على جميع شبه الجزيرة، وقبل خان القريم الدخول في تبعية الدولة العثمانية ، وظلوا كذلك لمدة ثلاثة قرون .

وأصاب كريزي Creasy حينما اعتبر هذا الفتح من أهم فتوح السلطان محمد الثاني بعد القسطنطينية(٣٦) . وذلك لانها استطاعت أي الدولة العثمانية بعد سيطرتها على هذه المنطقة ، ان تسد المنفذ البحري الهام الى منطقة الشرق الاوسط الحيوية في وجه العملاق الروسي ـ الذي استيقظ من سباته الطويل في القرن الثامن عشر ـ لمدة أربعة قرون . وظل البحر الأسود طوال هذه المدة بحيرة عثمانية . وليس هذا فقط بل امتدت سيادة الدولة العثمانية نتيجة هذا الفتح الى بحر آزوف وشواطىء روسيا الجنوبية في العهود التالية ، ثم إلى منطقة أوكرانيا في الداخل .

الصراع مع البندقية :

كانت البندقية أقوى الدول البحرية في العصور الوسطى . ويمكن تقدير قوتها في هذا المجال حسب وثيقة رسمية يرجع تاريخها الى ١٤٢٣ م ، أنه كان يشتغل في دور صناعة السفن بها ١٧,٠٠٠ عامل ، وفي بحريتها ٢٥ ألف بحار . . وكانت بحريتها تتألف من

---

(٣٦) Creasy , op . cit . , P.. 90

ثلاثة آلاف سفينة تجارية ، وثلاثمائة سفينة حربية ، وكانوا يبنون ٤٥ سفينة كل عام[٣٧] ، بالإضافة الى غناها الهائل لسيطرتها على التجارة البحرية ، ولمنتوجاتها من الحرير والصوف[٣٨] .

وكانت تستهين بقوة العثمانيين الصاعدة ، بل كانت لها أطماع في الاستيلاء على بقايا الممتلكات البيزنطية في بحر ايجه . كما أنها كانت تتبع الباباوات وتلبي نداءاتهم للاشتراك في حملات صليبية ، ولذلك دخلت في الصراع ضد العثمانيين في عهد مبكر يعود الى ١٤١٦ م ، ثم دخلت بسفنها وجنودها تحت الأميرال جيرولا مونتو الى جانب الامبراطور البيزنطي في حصار القسطنطينية الأخير . واضطرت بعد سقوط القسطنطينية الى دفع غرامة حربية لاشتراكها في معارك الحصار ، كما رضيت بدفع الرسوم على بضائعها التجارية ، وبعقد اتفاق سلمي مع الدولة العثمانية في ١٤٥٤ م . وهكذا غيرت سياستها العدائية تجاه الدولة مقابل مكاسب مادية[٣٩] .

ولكنها عادت فبدأت تساعد اسكندر الألباني بالجنود والأموال

---

(٣٧) شارل ديل ، البندقية جمهورية أرستقراطية (الترجمة العربية) ص ٦٥ - ٦٦ ، ويجب أن نتذكر أنها كانت تمتلك عدة جزر في بحر الأرخبيل ، وموانىء على سواحل دلماشيا في البحر الأدرياتيكي .

(٣٨) انظر تفاصيل ذلك في المصدر المذكور في نفس الموضع وغيره .

(٣٩) نفس المصدر ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

والعتاد في صراع هذا الثائر ضد الدولة . كما أنها من جهة أخرى حرضت أوزون حسن التركماني ، حاكم الدولة التركمانية على حدود الدولة العثمانية في الشرق ، ضد الفاتح ، وساعدته ببعض العتاد . ونتيجة لهذا بدأ الصراع الحربي بين البندقية وبين الدولة العثمانية في ١٤٦٣ م ، وظلت المعارك البحرية بين الطرفين مستمرة لمدة ١٦ عاماً . ولم تكن البندقية في هذا الصراع وحيدة بل كانت استمالت اليها أوزون حسن التركماني القوي ، الذي كان يضغط على العثمانيين في آسية الصغرى ، والزعيم الألباني الشجاع العنيد الذي كان يحارب العثمانيين في ألبانيا . بل لم تتورع جمهورية البندقية أن تفكر جديا في دس السم للفاتح[٤٠] .

واستطاع الأتراك خلال المعارك العديدة أن يستولوا على ثغر نجربون «Negerpont» أو اغريبوز كما يسميها الأتراك ، وكانت مجن المسيحية وحصنها حسب تقرير بندقي . وكان لهذا الانتصار دوي كبير في الغرب بأسره ، وفي الوقت نفسه اجتاح الأتراك ساحل دلماشيا «Dalmatia» التابعة للبندقية ، فطلبت البندقية الصلح . ولكن السلطان محمد رفض ذلك ، وظلت الحرب مستمرة في ألبانيا ، وبحر الأدرياتيك وشواطىء بحر ايجه . ومني حليف البندقية في الشرق ، أوزون حسن ، بهزيمة شنيعة في ١٤٧٣ م ، وسقطت كرويا «Croia»

---

(٤٠) شارل ديل ، المصدر المذكور ، ص ١٣٩ .

عاصمة ألبانيا في سنة ١٤٧٨ م . وحاصر السلطان مدينة اشقودرة على الشاطىء الشرقي لبحر الأدرياتيك .

وبدأت قوى البندقية تضعف وتخور . فرضيت بالتوقيع على صلح مهين لها . وعقدت بين الطرفين ـ بعد عديد من السفارات(٤١) ـ معاهدة صلح في ١٤٧٩ م ، تخلت البندقية بموجبها عن نجربون وأرجوس واشقودرة في البحر الأدرياتيكي .كما تعهدت أن تدفع للدولة العثمانية عشرة آلاف دوقة ذهبية كل سنة كضريبة للاتجار في الأراضي العثمانية(٤٢) .

وهكذا انتهت هذه الحرب الطويلة الأمد بالنسبة للبندقية بضياع أيوبيا «Euboea» وشمال ألبانيا ، وضعفت قوتها في البحر الى درجة يرثي لها ، بينما ازدادت قوة العثمانيين بحيث بدأوا يهددون بحر الادرياتيك بأكمله(٤٣) .

---

(٤١) انظر ذكر هذه السفارات والرسائل المتبادلة بين الطرفين في كتاب :
Documents from Islamic Chanceries , edited by S . M , Stren , Article : Six Ottoman Documents , by V . L . Menage , PP . 81 - 118 .

(٤٢) شارل ديل ، المصدر المذكور ص ١٤٠ .

(٤٣) V . L . Menage , loc . cit . P . 81 .

حصار رودس واحتلال العثمانيين للشاطىء الإيطالي :

بقيت في بحر ايجه قوة مسيحية عنيدة ، وهم فرسان القديس يوحنا الذين كانوا قد اشتركوا في الحملات الصليبية على فلسطين فيما مضى ، ثم استقروا في جزيرة رودس . وأصبحت رودس ملجأ لقراصنة البحر المسيحيين الذين كانوا يهددون التجارة العثمانية مع مصر . . فوجه الفاتح في ١٤٨٠ م حملة بحرية قوية بقيادة مسيح باشا لفتح هذه الجزيرة الهامة . ولكن فشلت هذه الحملة لمناعة قلاع رودس وموقعها الحصين ، وأكثر من ذلك لخطأ قائد الحملة ، الذي أعلن ، لأنانيته وجشعه ، قبل الهجوم النهائي أن الغنائم والأسلاب كلها ستكون للسلطان وحده ، وليس للجنود منها شيء . وكان ذلك طمعا منه في حيازتها لا خدمة للسلطان . فنقم عليه الجنود لذلك ، ولم يقوموا بحملة صادقة . . وكان جزاء القائد أن عزل من منصبه ، ولم يسمح له بدخول العاصمة العثمانية(٤٤) .

ولكن استطاع العثمانيون في نفس السنة أن يضعوا أقدامهم في حملة بحرية أخرى بقيادة أحمد كدك باشا ، فاتح القريم ، على شواطىء إيطاليا في الجنوب الشرقي ، ويحتلوا بعد هجومهم المباغت مدينة أوترانتو «Otranto» الهامة قرب ميناء برنديزي في «Taranto»

---

(٤٤) الرشيدي المصدر المذكور ص ٣٦٥ ، اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار ١٢/ ٥١٨ .

«Gulf» وذلك في ١١ أغسطس سنة ١٤٨٠ م[٤٥] . وكان القائد العثماني على أهبة الاستعداد بأن يواصل سيره داخل الأراضي الإيطالية ونحو روما بعد وصول الإمدادات ، ولكن موت السلطان الفاتح المفاجيء حال دون ذلك . ويعقب على هذا الحادث المستشرق الانكليزي لين بول «Lane -Poole» « إن موت محمد الفاتح أنقذ أوربا ، لأن الدور بعد أوترانتو كان لروما نفسها » .

وفاة محمد الفاتح :

وهكذا بعد ثلاثين سنة من الحروب المتواصلة للفتح وتقوية الدولة وتعميرها فاجأ السلطان محمد الفاتح الموت في ٤ ربيع الاول ٨٨٦ هـ/٣ مايو ١٤٨١ م في اسكدار في معسكره وبين جنوده . اذ كان الفاتح قد أعد في هذه السنة إعداداً قويا لحملة لا يعرف اتجاهها ، لأنه كان شديد الحرص على عدم كشف مخططاته العسكرية حتى لأقرب وأعز قواده . ولقد قال في هذا الصدد ، عندما سئل مرة « لو عرفته شعرة من لحيتي لقلعتها »[٤٦] ، وهذ السرية العسكرية التامة كانت سر نجاحه في كثير من حملاته وفتوحه . وهو مبدأ تكتيكي جد هام في فن الحرب .. ودفن الفاتح في الضريح الذي شيده في جامعه

---

(٤٥) Lane-poole, Turkey, P. 139, Creasy, Op. Cit., P. 92. ووهم اسماعيل سرهنك (١ / ٥١٧) فذكر هذا الفتح في ١٤٧٨ م .

(٤٦) Crasy , P . 92

بالقسطنطينية المعروف بجامع الفاتح . وبينما غلبت روح الكآبة والحزن على الأتراك لفقدهم سلطانهم المحبب ، وعم العزاء والرثاء في العالم الإسلامي لموت هذا المجاهد الفاتح المسلم ، قامت مظاهر الفرح في أوربا كلها بهذه المناسبة . فأقام ملك نابولي ، وفرسان القديس يوحنا وغيرهم الأفراح في عواصمهم ، وكان الابتهاج عظيما في روما حيث اقيمت الصلوات في كنائسها شكرا وفرحا على موت الفاتح بأمر من البابا ، بل اتخذ يوم وفاته يوم عيد(٤٧) .

وهكذا كانت هيبة محمد الفاتح في نفوس أهالي أوربا عامة وفي نفوس اهالي إيطاليا خاصة ، فتنفسوا الصعداء بمفارقته الدنيا . ولكنه لم يفارق هذه الحياة إلا بعد أن أوجد قوة عسكرية إسلامية ترهب الأعداء وبعد أن شيد دولته الفسيحة أو الامبراطورية العثمانية حسب تعبير الأوربيين ، على دعائم قوية من الأمن والنظام ، والرخاء والعمران ، وبعد أن رفع راية الإسلام عالية خفاقة في ربوع أوربا الشرقية ، والبحار الأسود والأبيض المتوسط الشرقي والأدرياتيك .

ومن المؤسف أن يشبه مؤلف مصري احترف كتابة التاريخ ، وهو محمد عبد الله عنان ، امبراطوريته بامبراطورية جنكيزخان وتيمورلنك حقداً منه وحسداً ، وبجاريا لأقوال المؤرخين الأوربيين المتعصبين أمثال كبن وهامر وبيوري وموردتمان الذين استقى منهم معلوماته في مقاله

---

(٤٧) الرشيدي ، ص ٣٧٤ .

فتح القسطنطينية . وفي نفس النغمة الناشزة ينكر ـ مغضيا عينيه عن الحقائق التاريخية ومدفوعا بكراهيته للأتراك ، وتحميلا جرائر الخلف على السلف ـ للأتراك أيَّ فضل في إنشاء حضارة إسلامية[٤٨] . ونرى بطلان هذا الرأي وتهافته فيما يأتي من الكلام .

وعكس ذلك تماما قال زعيم عربي كبير ومؤلف باحث شهير ، الأمير شكيب أرسلان في نهاية كلامه عن فتح القسطنطينية ، وذكر الآثار العثمانية بها . « وتأملت في فضل أولئك السلاطين الذين لو لم يؤثروا في الأرض الا هذه الآثار العظيمة وحدها لكفاهم ذلك فخرا في الدنيا وأجرا في الآخرة ، فكيف وقد ضموا الى هذه الآثار الباهرة تلك الفتوحات التي أشاد الزمان بذكرها ، وارتعدت لها الدول الأوربية بأجمعها ، وعاش الإسلام زمنا مديدا آمنا في ظلها فلا ينكر فضائل هذه الأسرة إلا المكابر الجاحد الذي يحاول أن يستر نور الشمس بيده ،

(٤٨) مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ . واشنع واكذب من ذلك اتهام عبد الرحمن الكواكبي (في كتابه أم القرى) السلطان الفاتح باطلا بانه اتفق مع فرديناند وايزابيلا في إزالة ملك بني الأحمر في غرناطة لقاء تقاعس روما عن مساعدة نصارى الشرق في انقاذ القسطنطينية . والحقيقة ان هذا الفتح قد تم قبل اعتلاء فرديناند العرش بستة وعشرين عاما . ولم يستول فرديناند وايزابيلا على غرناطة الا في سنة ١٤٩٢ م أي بعد وفاة الفاتح باحدى عشرة سنة . . وهكذا اتهامه باطل لا سند له من التاريخ . ومن المؤكد انه دفعه الى ذلك كراهيته للأتراك في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، وما لقى منه من العنت .

ولكن التاريخ شاهد أمين لا يكذب أهله »[٤٩] .

ومثل هذا رأي المؤرخين الأوربيين الكبار الذين اطلعوا على دقائق التاريخ الإسلامي في مختلف عصورها كبروكلمن وكب «Gibb» وبرنارد لويس الدين كتبوا فصولا ضافية أو الفوا في حضارة الأتراك العثمانيين .

أما كراهية المؤرخين الأوربيين المتعصبين لمحمد الفاتح ، فيمكن أن نتصورها بما قاله مؤرخ للدولة العثمانية من القرن التاسع عشر ، وهو السير ادورد كريزي « Sir Edward Creasy » الذي قال بعد الكلام على فتوحاته « لا أحب أن أعود الى هذا الموضوع الكريه »[٥٠] .

ومثل ذلك ما قاله مؤرخ فرنسي من القرن السابع عشر جييه «G. Guillet» الذي ألف كتابا في حياة السلطان الفاتح وحكمه وأهداه الى لويس الرابع عشر الشهير فقال في مقدمة كتابه هذا : انه اذ يسأل الله لفرنسا طول البقاء ، وأن يهب له المجد والسؤدد والقوة والسعادة يرجو من الرب كذلك أن لا يظهر مرة أخرى على وجه الأرض حاكم كالسلطان محمد الفاتح ، فقد كان حكمه بلاء ونكبة على النصارى والنصرانية . . هذا ما يجب أن يتمناه دوما بدون انقطاع لا الفرنسيون

---

(٤٩) حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٣٧ .

(٥٠) History of the Ottoman Turks , P . 93

وحدهم ، بل جميع الشعوب النصرانية الأخرى[٥١] .

ولم يكن الأمر كما قال هذا المؤلف الحقود ، بل النصارى في القسطنطينية واليونان والبلقان عاشوا في أمن وطمأنينة ، كما أكد ذلك المؤرخ الفيلسوف الشهير ، فولتير من القرن الثامن عشر الذي قال : « ان الأتراك لم يعاملوا النصارى بقسوة كما نعتقده نحن ، ولا تجيز أمة من أمم النصارى أن يكون للمسلمين مسجد ببلادها أصلا ، بخلاف الأتراك ، فانهم يسمحون لليونانيين المقهورين بأن تكون لهم كنائس ، وكثير من هذا بجزائر الأرخبيل تحت مراقبة حكامهم »[٥٢] . ومثل ذلك قال مؤرخ انكليزي معروف في أواخر القرن التاسع عشر اللورد اكتون «Lord Acton» عن المسيحيين في البلقان الذين عاشوا راضين مطمئنين في بلادهم في عهد الفاتح وبعده ، بل فضلوهم على اللاتين[٥٣] ، أو النصارى التابعين للبابا ، لتعصبهم الديني الممقوت . ومعاملة محمد الفاتح لبطريرق القسطنطينية ، عند نتخابه ، بكل مظاهر التبجيل والاحترام ما خيّر النصارى في العاصمة وأثر في قلوبهم .

---

(٥١) Histoire de regne de Mahometii ونقله الدكتور الرشيدي في كتابه المذكور ص ٤٢٣ .

(٥٢) نقل عنه اسماعيل سرهنك في كتابه حقائق الأخبار ج ، ص ٥١٠ .

(٥٣) Lord Acton , op . cit ., P . 45 .

النهضة العمرانية والعلمية في عهد الفاتح :

لقد قلنا فيما مر أن السلطان الفاتح لم يكن مجرد فاتح عظيم وسياسي بارع بل كان أيضاً منشىء حضارة تركية إسلامية زاهرة ، ونلقي الآن بعض الأضواء على منجزاته الحضارية الهامة .

ولا عبرة بأقوال المؤرخين المتعصبين القلائل أمثال جاك بيرين «Jacques Pirenne» الذي أنكر لجهله وتعصبه البغيض أن يكون للأتراك العثمانيين أي دور في المجال الحضاري ، أو يكون لهم أدب وفن . وكانوا هم جنودا محاربين ، والجنود يدمرون الثقافة والحضارة(٥٤) . وليس هناك قول أبعد عن الحقيقة والصواب من هذا . فيا ترى ماذا يقول هذا المؤلف أو من كان على شاكلته عن الرومان؟نعم كان الأتراك العثمانيون جنودا محاربين،ولكن ليسوا من طراز القوط Goths أو فيكنج «Vikings» البرابرة الأوربيين ، أو مثل الهون والتتار الشرقيين . بل هذبت نفوسهم تعاليم الإسلام وشريعة الإسلام ، والحضارة الإسلامية التي عاشوا في ظلها لمدة ثلاثة أو أربعة قرون ، قبل أن يبرزوا كفاتحين عظام على مسرح أوربا . فأسهموا بدورهم في بناء تلك الحضارة الإسلامية التي وضعت قواعدها قبل ثمانية قرون في مدينة صغيرة في الجزيرة العربية ، مدينة النبي عليه الصلاة والسلام ، والتي ازدهرت فيما بعد في عواصم دمشق وبغداد

---

(٥٤) Jaques Pirenne , The Tides of History , Vol . II , P . 393 .

والقاهرة وقرطبة ، وحان الوقت لتزدهر في عاصمة الإسلام الجديدة ، القسطنطينية أو الآستانة . وآثار هذه الحضارة واضحة جليلة في الأدب والعلم والنظم والقانون لكل باحث نزيه ، وهي في مجال الفن والبناء ماثلة للعيان حتى اليوم لكل زائر وسائح .

نقل محمد الفاتح عاصمة دولته من أدرنة الى القسطنطينية بعد فتحها بزمن قصير . وأول عمل قام به الفاتح بعد هذا هو إعادة الأمن والنظام في ربوعها ، فإنه لم يكن فتح تلك المدينة ليدمرها ويحطمها بل ليبنيها وينشئها من جديد ، بعد اضمحلال وخراب موروث(٥٥) . وسلك في هذا السبيل سياسة العدل والتسامح ، سياسة الإنسان الباني ، لا الفاتح المنتقم . كان قد هرب كثير من سكان المدينة قبيل سقوطها وبعده مباشرة خوفا من نقمة الفاتحين الجدد ، فأصدر الفاتح بيانا عاما دعا فيه هؤلاء الفارين الى العودة الى وطنهم ، وأمنهم على حياتهم وأموالهم ، ووعدهم بعيشة كريمة في حكمه العادل . وكذلك كان هرب كثير من الجنويين الذين كانوا يسكنون ضاحية غلطة Galata منذ أمد بعيد ، ويقومون بالأعمال التجارية في العاصمة البيزنطية ، كانوا قد هربوا الى الجزر اليونانية المجاورة بعد خيانتهم للعثمانيين أثناء الحصار وخوفا على أرواحهم ، فأمرهم السلطان عن طريق نداء عام

---

(٥٥) وقد ذكر هذا الخراب المؤرخ الجغرافي العربي ابو الفداء الذي زار المدينة في بداية القرن الرابع عشر قائلا : «وداخل سورها مزارع وبساتين وبالمدينة خراب كثير» . تقويم البلدان ، ص ٢١٣ .

بالعودة الى دورهم ومزاولة أعمالهم التجارية في ظرف ستة أشهر ، وإلا ستصادر أموالهم ودورهم التجارية ، فعاد هؤلاء وغيرهم من المسيحيين الى المدينة ، وزاولوا مهنهم وأعمالهم . وهكذا عادت الحياة والنشاط الإقتصادي الى مجراه الطبيعي في ظرف أشهر قليلة .

كما أنه أتى بأسر تركية وعربية كثيرة من الأناضول ، وأسكنها في العاصمة الجديدة لتتكون بها جاليات إسلامية وتساهم في الحياة المدنية والإقتصادية ، فاستقر بها آلاف من الأسر الإسلامية ، وهكذا بدأت سياسة الفاتح في إعمار المدينة . وانتعشت فيها حركة البناء والإنشاء ، والتجارة والاقتصاد ، فقد أصلح الفاتح بعض أسوارها المهدمة ، وشيد فيها عددا من المباني الكبرى ، من الجوامع والمدارس والقصور ، وقلده في ذلك وزراؤه وقواده .

وقبل أن نعرض بعض هذه الآثار يجب أن نشير الى نقطة هامة كان لها أثر كبير في عودة الحياة الآمنة المطمئنة بالنسبة لجميع سكان المدينة وبصفة خاصة للنصارى ، والتي كانت بمثابة حجر الزاوية للحياة الاجتماعية في ظل الحكم الجديد ، وهي سر بقاء الحكم العثماني لقرون طويلة في مناطق من أوربا كان معظم سكانها من المسيحيين . وهي سياسة التسامح التام في الشئون الدينية لغير المسلمين ، أو الحرية الدينية الكاملة حسب الشريعة الإسلامية . وأشاد بهذه السياسة كثير من الغربيين المنصفين ، ولقد بالغ في ذلك محمد الفاتح بحيث كسب قلوب رعايه من المسيحيين اليونانيين . فانه بعد أن انتخب المسيحيون

في العاصمة جورج جينادوس بطريرقا لهم أقره في منصبه الديني الأعلى بجميع مظاهر التكريم والتبجيل التي كانت تجري في مثل هذه المناسبة في عهد البيزنطيين ، بل زاد عليه . إذ استقبله السلطان في موكب الأساقفة ، وتناول معه الطعام ، وقدم اليه بيده عصا البطريركية ، وألبسه التاج بنفسه ووقف له عند مغادرته بلاط السلطان . . أو سار معه خطوات ، وهذا ما لم يعمله أباطرة بيزنطة . ثم أصدر فرمانا وجعل البطريرق بموجبه في مرتبة الوزراء ، ووكل إليه الإشراف على الشئون الدينية والمدنية لأهل ملته كالزواج والطلاق والميراث وإدارة أراضي الأوقاف المسيحية . وأوجد بذلك الفاتح ما سمى في الدولة العثمانية « بنظام ملت » ، والذي ظل متبعا حتى ألغاه مصطفى كمال أتاتورك في العهد الجمهوري في القرن العشرين .

ولقد قال الكاتب الفيلسوف الفرنسي فولتير معقبا على هذه السياسة : « مما يثبت أن السلطان محمدا الفاتح كان عاقلا حليما تركه للمسيحيين المقهورين الحرية في انتخاب بطريرق لهم ، فلما انتخب ثبته هو مع التعظيم ، وسلمه عصا البطارقة ، وألبسه الخاتم ، حتى قال ذلك البطريق عند ذلك إنني خجل مما لاقيته من التبجيل والاحتفاء الذي لم يفعله ملوك النصارى أصلا مع أسلافي »[٥٦] .

ولقد اعطى الفاتح لمهندس معماري اسمه كريستوبول حارة

---

(٥٦) نقله اسماعيل سرهنك في كتابه حقائق الأخبار (١/١١ه) .

مسيحية بتمامها لتكون ملكا له ولذريته من بعده ، وذلك لما قام به هذا المهندس من بناء بعض الأبنية للسلطان . وقال فولتير الذي ذكر هذا تعقيبا عليه « ليست هذه الحادثة من الحوادث التي تستحق الذكر في التاريخ أي أن مهندسا كان يمتلك حارة بأكملها بل القصد أن نبين أن الأتراك لم يعاملوا النصارى بقسوة كما نعتقده نحن . ولا تجيز أمة من أمم النصارى أن يكون للمسلمين مسجد ببلادها أصلا بخلاف الأتراك »[٥٧] .

وكان من نتيجة هذه السياسة أن بدأ عدد سكان القسطنطينية ، الذي كان قد تناقص الى ٥٠ ألف أو ١٠٠ ألف حسب التقديرات المختلفة ، في الازدياد بسرعة الى أن بلغ ٨٠٠ ألف نسمة في سنة ١٦٠٠ م ، وكان هذا العدد أكثر بكثير من عدد سكان أية عاصمة أوربية آنذاك[٥٨] .

ومن أهم آثار الفاتح العمرانية جامعه الكبير في قلب العاصمة ، والذي يعرف بجامع الفاتح . وتم بناؤه في ٨٧٥ هـ/ ١٤٧٠ م ، وبنى بجانبه مدارس الصحن الكبرى للتعليم العالي ، كما أنه شيد قبل ذلك ضريحا على قبر الصحابي الجليل المجاهد أبي أيوب الأنصاري وجامعا بجانبه في ٨٦٣ هـ /١٤٥٨ م ، ويقول كثير من المؤرخين الأتراك والعرب أن موضع قبر هذا المجاهد المسلم الأول انكشف في المنام للولي

---

(٥٧) نفس المصدر (١/ ٥١٠) .

(٥٨) Paul Coles , The Ottoman Impact on Europe , P . 4 .

آق شمس الدين أثناء حصار المدينة[٥٩]، والحقيقة أن قبره كان معروفا قبل ذلك بزمن طويل ، فذكره الرحالة الهروي (أبو الحسن علي بن أبي بكر) الذي زار القسطنطينية في القرن الثاني عشر الميلادي ، في كتابه الإشارات الى معرفة الزيارات قائلا : في جانب سورها قبر أبي أيوب الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها الجامع الذي بناه مسلمة بن عبد الملك والتابعون[٦٠] . ولعله كان ذلك بعد إلقاء السلطان السلجوقي ألب أرسلان الهزيمة المنكرة على الإمبراطور البيزنطي ديوجينوس وأسره له على شروط ، ومن بينها جامع للمسلمين في عاصمته والحفاظ على ما فيها من جامع للمسلمين قديم .

ومن المصادفات الحسنة أن هذا الرحالة دعا بعد وصف القسطنطينية «نسأل الله تعالى أن يجعلها دار إسلام بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى[٦١]» ، والله سبحانه قبل دعوته ، فأصبحت القسطنطينية دار إسلام بعد حوالي ثلاثمائة سنة من زيارته .

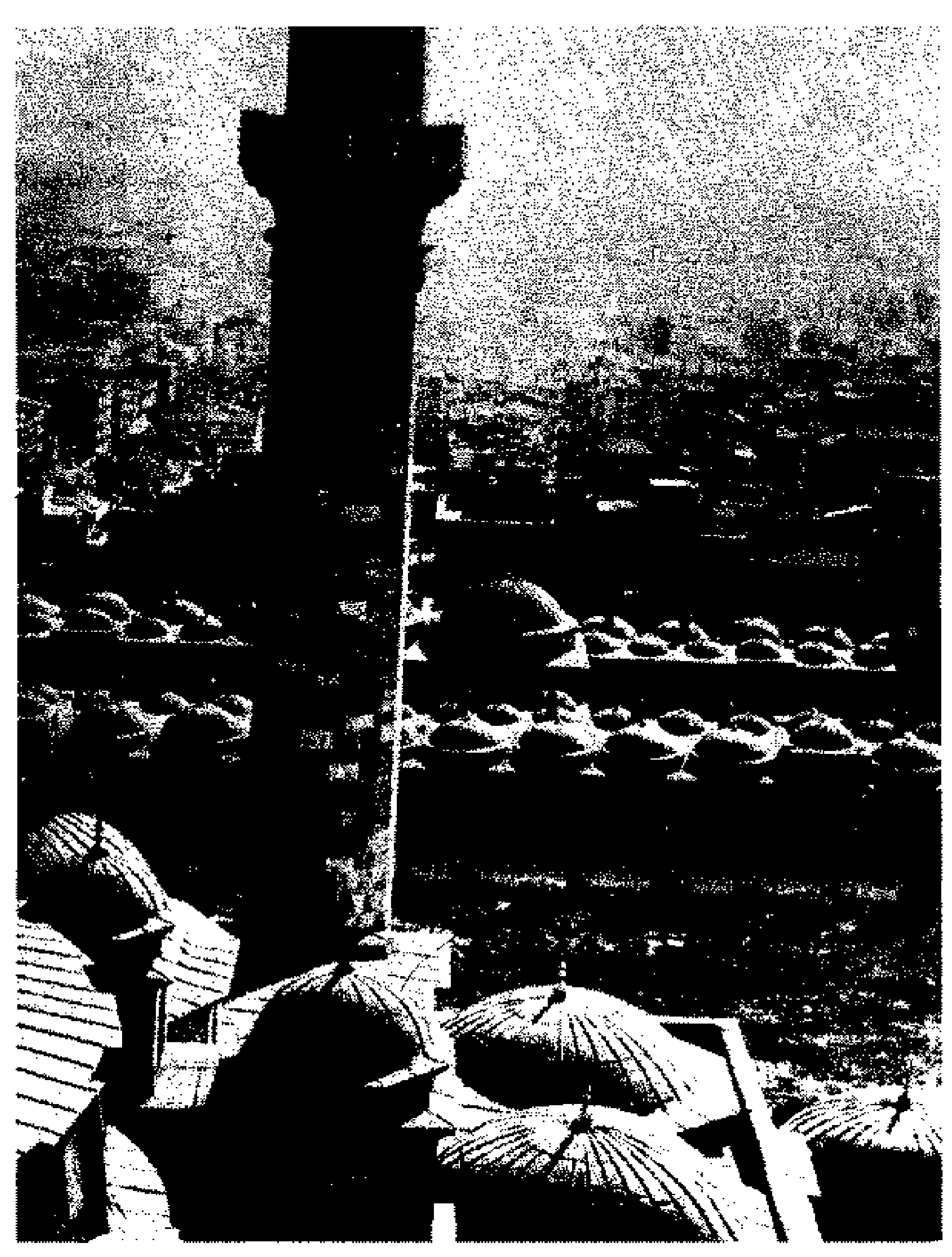
فلعل السلطان الفاتح جدد هذا الجامع الذي ربما يكون قد هدم بعد العداء المتجدد بين البيزنطيين والعثمانيين في الفترة المتأخرة .

---

(٥٩) انظر مثلا ، حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ ص ٢٢٨ ، الرشيدي ص ١٤٩ .

(٦٠) رحلة الهروي (مخطوط في دار الكتب المصرية) ص ٤٨ ، نقله عنه نور من بينز في كتاب الإمبراطورية البيزنطية (الترجمة العربية ٣٩٥) .

(٦١) نفس المصدر المذكور في نفس الصفحة .



ـ مدارس الصحن الثمانية ، مع منارة جامع الفاتح وخلفها مباني استنبول .

وأصبح من التقاليد العثمانية منذ ذلك الوقت أن احتفال تنصيب السلطان الجديد كان يجري في جامع أبي أيوب الأنصاري حتى نهاية الدولة العثمانية .

وبنى بعض وزراء الفاتح كمحمود باشا ومراد باشا جوامع أخرى مقلدا الفاتح ، وهي لا تزال معروفة بأسمائهم . وسرعان ما أضيف الى هذه الجوامع مكتبات ومدارس ، ودور سكن للطلبة وأصبحت القسطنطينية بعد مدة وجيزة مدينة الجوامع الممتازة في العالم الإسلامي . إذ حذا حذوه السلاطين العثمانيون ووزراؤهم وأنشأوا فيها عشرات من الجوامع الفخمة .

ويقول بروكلمن إن تخطيط أهم مباني المدينة في العاصمة يرقى الى عهد الفاتح أيضا ، فقد أعاد إنشاء الأسوار المحيطة بها ، والتي كانت قد انهدمت أثناء الحصار ، كما بنى عند طرفها الجنوبي الغربي الى جانب بحر مرمره قلعة الأبراج السبعة (يدي قوله) . وأنشأ أحواضا لبناء السفن وترسانات لإنتاج الأسلحة والذخائر .

وفي سنة ١٤٥٤ م بنى قصرا في وسط المدينة (والذي أصبح فيما بعد مقراً لوزارة الحربية وبه حاليا جامعة استنبول) ، واستقر به الفاتح بعد عودته من أدرنة واتخاذه القسطنطينية عاصمة جديدة لدولته . وبعد احدى عشرة سنة أي في ١٤٦٥ م شرع الفاتح في تشييد قصر جديد ، في مساحة واسعة جدا ، على أعلى طرف التل المطل على بحر مرمرة والقرن الذهبي ليكون مقرا له وللحكومة . وتم بناء هذا القصر

بعماراته العديدة في ١٤٧٨ م وعرف لدى الأتراك بـ «سراي طوب قبو» (قصر باب المدفع) لكونه بالقرب من باب المدفع للمدينة (وهو بوابة سان رومان القديمة) . أما الغربيون فعرفوه بـ « سراجليو[٦٢] » .

وظل هذا القصر الفسيح بأبنيته المتعددة مقرا للسلاطين ورجال بلاطهم الى القرن التاسع عشر عندما بنوا قصورا جديدة ، وانتقلوا اليها ، ومقرا للحكومة الى منتصف القرن السابع عشر عندما أعطى السلطان محمد الرابع وزيره درويش باشا بناية كبيرة لتكون مقرا له ولدواوين الدولة . والذي عرف بالباب العالي . وهكذا فكان سراي طوب قبو « مدينة القصر » كما سماه لين بول وغيره .

وطالما استجلب هذا القصر أنظار الأوروبيين قديما ، فوصفوه في مؤلفاتهم باسهاب وإعجاب ، وأحسن وأدق من وصفه أوتافيانو بونOtaviano Bon سفير البندقية الى البلاط العثماني بين سنتي ١٦٠٦ - ١٦٠٩ م وترجم وصفه الى الانجليزية[٦٣]وينقسم هذا القصر الى أقسام رئيسية ثلاث لكل منه

---

(٦٢) وهو تعريف لكلمة سراي الفارسية ، وعرف عندهم قديما بسرايل ايضا وسراي طوب قبو حاليا متحف . ويضم كنوز السلاطين من الجواهر والأثاث ، كما يضم مخلفات النبي صلى الله عليه وسلم ، ومكتبة السلاطين القيمة الغنية بروائع التراث الإسلامي في اللغات الإسلامية المختلفة .

(٦٣) انظر مقتطفات من هذا الوصف في كتاب برنارد لويس Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire , P . 67 infra وترجمتنا له باسم استنبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية ، ص ٧٤ وما بعدها .

باب خاص ، فالأول للحرس والمطابخ والاسطبل والثاني للديوان (حيث كانت تعقد جلسات الحكومة تحت إشراف السلطان أو الوزير الأعظم) ، وخزينة الدولة ، والثالث الأخير لسكنى السلطان وكبار خدمه ، وفيه قسم مستقل للحريم . وهكذا لكان هذا القصر يتسع لعدة آلاف من الناس . ويقـوم في أجمل بقعة من المدينة القديمة يحيط به سور عظيم . ولكنه لا يضارع في الفخامة والروعة القصور الجديدة التي أنشئت في القرن التاسع عشر ، كقصر دولمه باغجة ، وقصر يلدز على الطراز الأوروبي .

ويلاحظ حرص محمد الفاتح على الاحتفاظ بالروائع الفنية بأنه عندما حول كنيسة أيا صوفيا العظيمة الى الجامع ـ حسب المتبع في تلك العصور لدى جميع الأمم من تحويل معابد المغلوبين الى معابد الفاتحين ـ لم يمح الصور المرسومة على سقف وجدران هذه الكنيسة ، بل اكتفى بتغطيتها بطبقة من الجص ، وبناء مأذنة عالية بها ، ومحراب في داخلها ، كما قوى جدرانها من الخارج ببناء مساند لها في أسفلها(٦٤) .

---

(٦٤) حول مصطفى كمال اتاتورك جامع أيا صوفيا الى متحف في عهده الجمهوري ومنع فيه الصلاة . ولكن ما زال حرسه الأتراك يتغاضون عن أولئك الزوار المسلمين الذين يحبون أن يصلوا فيه ركعتين في ركن خفي . حدث هذا مع كاتب هذا البحث عند زيارته له في ١٩٦٠ م في صحبة صديق تركي مسلم متدين إذ جاء اليّ أحد الحراس الذي لمحني أصلي ركعتين وقال بواسطة صديقي انه ايضا يصلي فيه عندما يكون في مأمن من العيون . هذا في أيا صوفيا ، اما في جامع قرطبة العظيم والذي حوله الاسبان الى كنيسة ، ثم

أما الحركة العلمية في العاصمة العثمانية الجديدة فهي من أهم مميزات عصر الفاتح . ولقد عرفنا فيما سبق أن السلطان محمد نشأ نشأة علمية دينية ، وولع بالآداب والفنون ، ولم يقتصر نشاطه العلمي والثقافي بقراءاته الشخصية واقتناء الكتب النادرة ومصاحبة العلماء والأدباء والشعراء وتشجيعه لهم في داخل بلاده وخارجها ورعايته لهم ، بل يعود اليه الفضل في الحركة التعليمية الكبرى التي قامت في عهده وتحت رعايته الشخصية .

كان جده الأعلى أورخان بن عثمان قد أقام معاهد للتعليم الديني العالي في بورصة وازنيق بعد فتحه لها في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، ثم رعى مراد الثاني والد الفاتح هذه الحركة العلمية والتعليمية ، وبرز خلال هذه المدة عدد كبير من العلماء الأتراك الأفذاذ الذين درسوا في مدارس بلادهم وفي الشام ومصر . . وجاء الفاتح لينظم هذه الحركة التعليمية في أعلى المستويات لتخريج العلماء والأساتذة والقضاة والمهندسين والأطباء ، فأنشأ بجانب جامعه الكبير (جامع الفاتح) في ٨٧٥ هـ/ ١٤٧٠ م كلية للتعليم العالي عرفت بمدارس الصحن الثمان ، وعرفت بهذا الاسم لأنها أقيمت في وسط

= الى متحف في العصر الحديث فلا تزال تقام فيه صلاة المسيحيين يوم الأحد في كنيسة صغيرة في وسط الجامع من داخله وشاهدت ذلك في صيف عام ١٩٦٨ عند زيارتي لقرطبة . ووفقني الله لأداء ركعتين فيه أيضا . وكم أتمنّى أن يصلي زواره المسلمون ركعتين فيه ويعيده إلى الإسلام والمسلمين .

المدينة بجانبي الجامع ، وكانت تتكون من ثمانية أبنية ، وألحقت بها ثماني مدارس أخرى كانت تسمى بمدارس تتمة ، وهي بمثابة المعاهد الإعدادية قبل التخصص والمتخرجون منها يلتحقون إن شاءوا بمدارس الصحن للتخصص ، أو يعينون قضاة في المدن الصغرى غير استنبول وأدرنة وبورصة .

وكانت كل وحدة من وحدات مدارس الصحن تشتمل على ١٩ حجرة وقاعة كبيرة لإلقاء الدروس والمحاضرات ، وكانت ١٥ حجرة منها مخصصة لسكنى الطلبة ، وحجرتان للأستاذ والأستاذ المساعد (المعيد) وحجرتان للفراش والبواب ، وهكذا فكانت ١٢٠ حجرة مخصصة لسكنى الطلبة ، يسكن في كل منها طالب واحد، يعرف بلقب «دانشمند» ، ويصرف لكل طالب ١٢ آقجة (عملة فضية) كمرتب شهري لمصروفات الجيب .

وبنى بجوار هذه المدارس مطعما خيريا ، ومستشفى كامل المعدات . وكان الطلبة الذين يدرسون الطب يتمرنون في هذا المستشفى . وكانت تدرس في مدارس الصحن جميع العلوم المتعارفة من الدين والآداب والرياضيات والفلك والهندسة والطب[٦٥] . وكأنها كلية سكنية للعلوم والآداب والطب ، وهكذا فهذه المدارس

---

(٦٥) استفدنا في هذا التفصيل من كتاب «ابو الفتح السلطان محمد الثاني وحياته العدلية لعلي همت بركي الاقسكي ، وانظر للتفاصيل الأخرى صفحات ٨٤ ـ ٩٣ منه . وانظر ايضا كتاب الدكتور الرشيدي المذكور ص ٣٨٤ ـ ٣٨٦ .

العالية كانت خطوة إلى الأمام في حركة التعليم العالي في الإسلام التي بدأت بجامعة القرويين في فاس ، ثم الأزهر في القاهرة ، فالمدارس النظامية في بغداد ونيسابور وغيرهما في العهد السلجوقي العباسي ، فمدارس الفاتح ثم مدارس سليمان القانوني في استنبول .

وكان لهذه المدارس نظام دقيق في الدراسة وامتحان القبول ، ونيل الإجازة والانتساب اليها يعد شرفا . والسلطان الفاتح نفسه انتسب اليها ، وحصل على حجرة خاصة له ، ولكن ـ كما يروى ـ بعد أداء امتحان القبول حسب لائحة الكلية(٦٦) . وكان الفاتح يزورها من حين الى حين حيث يستمع الى الدروس ، ويحضر بعض الامتحانات(٦٧)ويستقبل زواره في حجرته بها .

وتولى التدريس في مدارس الصحن الأساتذة الأعلام ، وتخرج منها عدد كبير من العلماء والفقهاء والقضاة ، الذين قاموا بدورهم الملحوظ في تنشيط الحركة العلمية في أرجاء الدولة .

وبالإضافة الى هذه الكلية بأقسامها المختلفة أنشئت مدارس عالية تعرف بمدارس القصر ، وهي في قصر الفاتح القديم باستنبول وقصر طوب قبو وقصره في أدرنة . حيث تخرج عدد كبير من وزراء الدولة وقواد الجيش وكبار الإداريين ، إذا كانت العناية موجهة في هذه

---

(٦٦) المصدر المذكور اعلاه ص ٨٠ هامش ١ .

(٦٧) الرشيدي ، المصدر المذكور ص ٣٨٥ .

المدارس الى تعليم اللغات والآداب وفنون الإدارة والحرب والتربية العسكرية .

يضاف الى هذه المدارس ، المدارس الأهلية الأخرى مع الجوامع الكبرى كمدرسة أيا صوفيا ومدرسة زيرك ومدرسة محمود باشا صهر الفاتح ووزيره . وكذلك عمت حركة التعليم في المدن العثمانية الأخرى في الأناضول وروملي (القسم الأوروبي من الدولة ومركزه أدرنة) .

ونبغ في عهد الفاتح عدد كبير من العلماء الأعلام كالمولى الكوراني والمولى زيرك وخواجه زاده وعلاء الدين الفناري وغيرهم ، وكان بعضهم أساتذة الفاتح كما ذكرنا فيما مر من الكلام . كما نبغ في عهده عدد من الشعراء والأدباء بل الشاعرات أيضا في اللغة التركية التي حلت محل الفارسية ـ لغة الثقافة الأدبية قديما ـ منذ عهد مراد الثاني والد الفاتح .

وكان أقدم شعراء الأتراك يونس امره[٦٨](المتوفى حوالي ١٣٢١) في عهد عثمان مؤسس الدولة العثمانية ، وكا شاعرا شعبيا متصوفا .

---

(٦٨) احتفلت تركيا في ١٩٧١ بمرور ٦٥٠ عاما على وفاته . وانظر عن حياته ونماذج من شعره مقال جميلة قيراطلي بعنوان «المتصوف الشعبي التركي ، يونس امره» والمراجع القليلة المذكورة في هذا المقال بمجلة «فكر وفن» عدد ١٨ سنة ١٩٧١ ، الصادرة في هامبورج بألمانيا .

ولكن الشعر الفني الرصين في هذه اللغة لم يظهر إلا في عهد الفاتح . واشتهر من الشعراء في عصره علي شيرنواي ، وحمدي وآلهي وشهدي وغيرهم كثيرون ، ومن الشاعرات زينب ومهري ، كما كان وزيره أحمد باشا كذلك شاعرا غزليا ، وكذلك ستة وزراء آخرون كانوا ممن يقرضون الشعر . وكان الفاتح نفسه شاعرا واتخذ لنفسه لقبا شعريا ، وهو «عوني» على عادة شعراء الفرس والأتراك وشعراء الهند وباكستان ، وله ديوان شعر مطبوع باسم «ديوان عوني» ومن ثم ولعه بالشعر والشعراء . ولتشجيع ذلك أنشأ في كل من بروسه وقسطموني من مدن الأناضول مدارس لتعليم الشعر الغنائي ، وأجرى مرتبا لثلاثين شاعرا في بلاطه(٦٩) .

ونسج هؤلاء الشعراء على منوال الشعر الفارسي الصوفي والغزلي والملحمي ، والذي كان معروفا في آسية الصغرى منذ عهد سلاجقة الروم ، والذين ورثت تراثهم الدولة العثمانية في مجال الأدب والفن والإدارة والحكم . فنظم حمدي قصتي يوسف وزليخا ، وليلى ومجنون على غرار ما نظمه الشاعران الفارسيان نظامي كنجوى وجامي . وبدأ شهدي بنظم التاريخ العثماني على نمط الفردوسي في «شاه نامه(٧٠) » ،

---

(٦٩) على همت الاقسكي ، المصدر المذكور ص ٣٩ وطبع ديوانه في العصر الحديث باسم شعر الفاتح بالحرف العربي واللاتيني بأنقره في ١٩٤٦ م .

(٧٠) وهو أضخم ملحمة شعرية في سير الملوك الفرس (٦٠ الف بيت) نظمه الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي ، في اوائل القرن الخامس الهجري .

ولكن عاجلته المنية . ولقد نظم الكلشني نحو عشرين ألف بيت في أسلوب «مثنوى معنوى» لجلال الدين الرومي الشهير في أدب التصوف، وكذلك الشاعر الهي له «زاد المشتاقين » و« نتائج الأرواح » في الشعر الصوفي مثل شعر ابن عربي وابن الفارض من مشهوري متصوفي العرب(٧١) .

وكذلك نضج في عهده النثر العلمي والفني الذي كان قد بدأ بدايته الأولى كالشعر منذ عهد عثمان وأورخان بالكتابات الدينية والصوفية . فألف سنان باشا وزير الفاتح كتابه «التضرعات» في المناجاة الدينية في النثر المنمق(٧٢) ، كما ألف سكرتيره طرسون بيك تاريخا للدولة العثمانية يعرف بتاريخ أبي الفتح ، اشتهر باسم المؤلف . وهكذا تطورت كتابة التاريخ العثماني في عهده من المؤلفات الأولية كتواريخ آل عثمان مجهول المؤلف ومناقب آل عثمان وغيرهما، وبلغ ذروة الكمال في عهد بايزيد الثاني ابن السلطان الفاتح في أواخر القرن الخامس على يد ابن كمال باشا العلامة التركي الفذ .

كان من أثر تشجيع الفاتح للعلم والعلماء أن توجه الى بلاطه عدد من العلماء والشعراء النوابغ من الأقطار الإسلامية الأخرى ، ومن هؤلاء العالم الفلكي الرياضي علاء الدين علي قوشجي الذي جاء من

---

(٧١) وانظر عن غيرهم من الشعراء الأتراك في عصر الفاتح كتاب .
A History of Ottoman Poetry , by E . J . W . Cibb , 6 Vols

(٧٢) Lane - Poole, Turkey P . 309

بلاد ما وراء النهر مع أفراد أسرته بدعوة من الفاتح ، وأصبح من ندماء الفاتح وألف رسالة في الحساب باسمه وسماها المحمدية[٧٣] ، وكذلك حسن بك التركمان الذي ألف رسالة في علم الهيئة باسمه وسماها الفتحية[٧٤] (على كنيته أبو الفتح) ، والشاعر العالم الفارسي الشهير عبد الرحمن جامي الذي كان يرسل اليه الفاتح مرتبا سنويا في مدينة هرات (في أفغانستان حاليا) توجه هذا الشاعر ـ الذي ألف رسالة في سيرة الفاتح ومدحه بقصائده ـ الى القسطنطينية ، ولكنه عند وصوله الى مدينة قونية في الأناضول عرف نبأ وفاة السلطان الفاتح فحزن وعاد الى بلاده . واستمرت علاقته الطيبة مع بايزيد الثاني ابن الفاتح والذي ألف له كتابي «دفتر العدل» و «سلسلة الذهب[٧٥]» .

بل دعا الفاتح الى بلاطه أصحاب الفن من غير المسلمين ، ومن هؤلاء جنتيل بليني أشهر الرسامين البنادقة في عهده ، وأقام هذا الرسام لمدة سنة في استنبول ، ونال جوائز سنية من السلطان بالإضافة الى مرتبه . وهو الذي رسم صورة السلطان محمد الشهيرة التي هي محفوظة في «المتحف الفني القومي» National Art Gallarey في لندن . وكذلك أرسل اليه رئيس جمهورية البندقية بعد انعقاد الصلح بين الطرفين مهندسا معماريا ومثالا شهيرا هو بارتولوميو Bartolomio .

---

(٧٣) محمد بيك النقشبندي البرهانبوري ، ملحق خلاصة السير ص ١٣٨

(٧٤) المصدر نفسه في الموضع نفسه .

(٧٥) المصدر نفسه .

وكان الفاتح كالمأمون والواثق من خلفاء العباسيين في إقامة مجالس علمية للمناقشة والمجادلة بين كبار العلماء في بلاطه وكانت بعض هذه المناقشات تستمر لمدة أسبوع[٧٦] ، كما كان يناظر بنفسه رئيس بطارقة المسيحيين الأرثوذكس في استنبول ، جناديوس . وطلب اليه أن يؤلف له رسالة في الدين المسيحي حسب مذهبه .

وكذلك عمت حركة الترجمة والنقل من اليونانية واللاتينية والعربية الى اللغة التركية في عهده . ولقد عثر السلطان على نسخة أصلية من كتاب بطليموس اليوناني في الجغرافية ، وخريطة له في قصر الإمبراطور فدرسه مع العالم اليوناني جورج امبروتزوس ثم أمر بترجمة هذا الكتاب القيم الى اللغة العربية من جديد بعد الترجمة التي تمت في العصر العباسي ، وإعادة رسم الخريطة مع التحقيق في أسماء البلدان وكتابتها بالعربية واليونانية . وبالفعل ترجمه ابن هذا العالم اليوناني الذي كان يجيد اللغة العربية . ونشر هذه الترجمة الأمير المصري المثقف الباحث يوسف كمال من العائلة الخديوية في ١٩٢٩ م في طبعة مصورة . كما ترجم كتاب مشهوري الرجال لبلوتارخ من اللاتينية الى التركية ، وكذلك تم نقل كتاب التصريف في الطب لأبي القاسم الزهراوي الأندلسي الى هذه اللغة مع زيادات في صور الآلات

---

(٧٦) انظر تفاصيل بعض هذه المناقشات في كتاب على همت الاقسكي المذكور ص ٣٣ - ٣٤ و ٨٣ ، وفي كتاب محمد الفاتح للدكتور الرشيدي ص ٣٨١ - ٣٩٢ .

الجراحية ، وأوضاع المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية .

وكثيرا ما كان الفاتح يطلب من عدد من العلماء الكتابة في موضوع واحد ، في صورة المسابقات العلمية في العصر الحديث ليدفعهم التنافس الى إبداع وابتكار ، وإنتاج علمي أفضل . ويمنح المؤلفين البارعين مكافآت جزيلة ، فازدهرت الحركة العلمية في عهده ، وكثرت التآليف العلمية وخاصة في الموضوعات الدينية والأدبية(٧٧) .

ولقد كون السلطان محمد الفاتح العالم الشاعر مكتبة خاصة في قصره غنية بنوادر الكتب وروائع الآثار ، فيها ١٢ ألف مجلدا في مختلف اللغات العربية والفارسية والتركية واليونانية واللاتينية . . بالإضافة الى المكتبات الأخرى الملحقة بمدارس الصحن ومدرسة أيا صوفيا ومدرسة أبي أيوب الأنصاري وغيرها . وسار على هذا المنهج وزراؤه ، ثم السلاطين الآخرون بعده ، حتى أصبحت استنبول أغنى العواصم الإسلامية بروائع الآثار الإسلامية لحرص السلاطين والوزراء على اقتناء الكتب القيمة من أطراف العالم الإسلامي ، وتكوين مكتباتهم الخاصة بالجوامع الكبرى . ولا تزال هذه المكتبات تحتفظ بأكبر قسط من روائع المخطوطات العربية .

---

(٧٧) ومن اراد الاطلاع على حياة هؤلاء العلماء وإنتاجهم في العربية والتركية فعليه الرجوع الى كتاب «الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية» لمؤلفه التركي الجليل طاشكبرى زاده .

تنظيم الدولة في عهد الفاتح :

بدأ تنظيم الدولة العثمانية في عهد أورخان ثاني سلاطين الدولة تنظيما أوليا ، وظل هذا التنظيم متبعا ببعض التعديلات البسيطة في جهازها المدني والقضائي والعسكري الى أن جاء عهد الفاتح ، والذي استقر فيه الحكم العثماني على مناطق شاسعة في أوربا الشرقية وآسية الصغرى أو الأناضول بأسرها ، فدعت الحاجة الى تطوير نظم هذه الدولة الواسعة ووضع قوانين ولوائح لها . وتم ذلك في عهد الفاتح على نطاق واسع ، وظلت المؤسسات الحكومية والتشكيلات القضائية والعسكرية التي أنشئت في عهده قائمة ببعض التعديلات والإصلاحات ، الى عهد السلطان محمود الثاني في بداية القرن التاسع عشر الى أن أجرى فيها هذا السلطان تغييرا جذريا ، وأنشأها على نظم أوربية .

ومن الجدير بالملاحظة أن كيان الدولة العثمانية كانت قائمة ، كالدول الإسلامية الأخرى في ذلك العصر ، على الشريعة الإسلامية : يمسك بزمام أمور الدولة أمير أو سلطان مطلق التصرف ، يهيمن عليه الشرع الإسلامي ويحد من صلاحياته . وظل هذا الوضع قائما طوال العهد العثماني ببعض تعديلات شكلية في القرون الأخيرة عندما انفصلت الحكومة عن القصر .

وعلى هذا فكان السلطان هو رئيس الحكومة وقائد الجيش ،

يساعده في تصريف شئون الدولة المدنية والعسكرية وزير وقواد الجيش كما يساعده في شئون القضاء وفصل الخصومات قاض يسمى قاضي العسكر . وكان أول وزير علاء الدين أخو أورخان ، وأول قاضي عسكر المولى خليل الأسود الجندري أو الجندرلي في عهد مراد الأول ، والذي اختير بعد ذلك لمنصب الوزارة ، وظل هذا المنصب في أعقابه ، وكان آخر من تولاه منهم خليل باشا الجندري ، الذي قتل لخيانته بعد فتح القسطنطينية كما رأينا فيما سبق .

لم يكن حتى عهد الفاتح نظم ولوائح للتشكيلات العسكرية الجديدة التي أنشئت في عهد والده مراد الثاني باتخاذ نظام «ديوشيرمه» (جمع الأطفال المسيحيين لقاء ضريبة حكومية) وإدخالهم في جيش الإنكشارية . ويقال أن مراد الثاني في أواخر عهده اهتم بوضع نظام ولوائح لجيشه المكون من عناصر مختلفة ، ولكن لم يحفظ لنا التاريخ منها الا الخطوط الأساسية . كما كان قد ازداد الوزراء من واحد الى اثنين أو اكثر .

وجرى في عهد الفاتح تنظيم خاص لأركان الدولة ومؤسساتها ، والتشكيلات القضائية والعسكرية ، وإدارة الأقاليم .

فكان مركز الحكومة في القصر السلطاني ، وخصص لها مكان خاص يسمى «بالديوان الهمايوني» ، وعلى رأس الحكومة الوزير الأعظم (أو رئيس الوزراء) يساعده في ذلك أربعة وزراء يسمون وزراء

القبة[٧٨] ، وكانت تعقد جلسات الحكومة في الديوان تحت إشراف السلطان نفسه ، وكان من أركان الدولة الذين يحضرون مجلس الحكومة بالإضافة الى هؤلاء المذكورين قاضي العسكر (أو رئيس القضاة) ، والدفتر دار (وهو وزير المالية) ، والنشانجي (وهو رئيس المكتب السلطاني وبمثابة وزير الخارجية أيضا) .

وعند افتتاح جلسة الديوان الهمايوني كانت فرقة الموسيقى[٧٩]تعزف السلام السلطاني ويسمعه السلطان وأعضاء الحكومة واقفين .

كان السلطان يحضر جلسات الحكومة يوميا ويشرف عليها شخصيا ، ولكنه امتنع عن ذلك في أواخر أيامه ، وذلك باقتراح من وزيره أحمد كدك باشا لحادث بسيط[٨٠]ويدأ يراقب أعمال مجلس الحكومة ، ويسمع مناقشات الأعضاء من شباك في غرفة الطابق العلوي للديوان . وكان للوزير الأعظم سلطة مطلقة في تصريف

---

(٧٨) سموا بهذا الإسم لأنهم كانوا يجلسون تحت قبة في الديوان أو القاعة .

(٧٩) والعثمانيون هم أول من اتخذ موسيقى عسكرية كما يقال .

(٨٠) وهو أن جاء احد الفلاحين في جلسة الديوان وسأل الحضور بلهجة خشنة من منكم السلطان فعندي مظلمة . ولاحظ احمد كدك باشا استياء السلطان من هذه المفاجأة اثناء البحث في موضوع هام . فاقترح على السلطان مراقبة مناقشات المجلس من بعيد ، ولكن الوزير ، كما يقول علي همت الأقسكي ، انتهز هذه الفرصة لإبعاد السلطان من المجلس حتى تدور المناقشات بحرية اكثر ، دون مهابة لوجوده بين الأعضاء .

شئون الدولة ، ويسلم اليه خاتم الحكومة عند تعيينه ويسترد منه اذا عزل كما كان الأمر في الخلافة العباسية . ومعظم هؤلاء الوزراء منذ عهد الفاتح كانوا من أولئك الذين تربوا ونشأوا في مدارس القصر من الأطفال المسيحيين الذي أسلموا . أما في مجال القضاء فقد أنشأ الفاتح منصب قاضي عسكر ثان ، فأصبح هنالك قاضيا عسكر : واحد للروملي (أو المنطقة الأوربية) والآخر للأناضول ـ وكلاهما يحضران جلسات الحكومة . . ويجانبهما مفتي العاصمة الذي كان يعرف بمفتي الأنام (وشيخ الإسلام فيما بعد) .

وكان القضاء مستقلا تمام الاستقلال في الدولة ، ويشرف على السلطة القضائية قاضيا عسكر ، وهما يعينان قضاة في أقاليم ومدن مختلفة .

أما التشكيلات العسكرية فقد تم تصنيفها في هذا العهد في قسمين رئيسيين «قبوقولي» (عبيد الباب) ، والآخر «آيالات عسكرية» (جند الولايات) . فالأول هم جنود خاصة ، وكانوا ينقسمون الى فرعين : مشاة وفرسان . وكان المشاة الخاصة مؤلفة من سبعة أسلحة بأسمائهم التركية ، كسلاح الرماة ، وسلاح المدفعية وسلاح الهندسة ، وسلاح العربات وسلاح الألغام وغير ذلك . وكان هؤلاء يسكنون في ثكنات حكومية في استنبول وأدرنه .

أما فرسان الخاصة فكانوا مكونين من ست فصائل بأسمائهم التركية ، وهؤلاء لم يكونوا يقيمون في ثكنات في استنبول ، بل في

القرى المجاورة لها ولأدرنة وبورصة حيث مراعي خيولهم . ومرتبات هؤلاء المشاة والفرسان كانت تصرف من خزينة الدولة .

أما جند الإيالات فكان ينقسم أيضا الى فرق خاصة من الفرسان والمشاة وأسلحة عديدة ولهم أسماء تركيبة غريبة[٨١] . وكان على أمراء الولايات «بيلربي» أن يرسلهم الى الدولة عندما يلزم الأمر في حالة حدوث الحرب وتوجيه الحملات ، ومرتباتهم وأجورهم كانت تصرف من إيراد الولايات ، أو يشترك هؤلاء الجنود وخاصة الفرسان منهم في المعارك لقاء الإقطاعات التي منحت لهم كبدل للخدمة العسكرية منذ العهود الأولى ، ومن ثم فكان هؤلاء يسمون فرسان الإقطاعية .

وفي عهد الفاتح أصبح للأسطول لأول مرة شأن ملحوظ ، وهو الذي انشأ منصب أمير البحر (الذي عرف فيما بعد بقبودان باشا) ، وكان سليمان باشا بلطه أوغلو أول من تولى هذا المنصب وبعده حمزة باشا . وكان سلاح البحرية يتألف من ثلاثة آلاف جندي[٨٢] ، من قواد السفن والضباط والبحارة ، ويشترك معهم عند نشوب المعارك جنود الإنكشارية وجنود الولايات بأعداد وافرة ، كما ازدادت السفن في دور الصناعة (الترسانات) الحكومية في هذا العهد .

وأما قانون نامه (لائحة القانون) الذي ينسب الى عهد الفاتح

---

(٨١) انظر هذه الأسماء في كتاب علي همت الأقسكي المذكور ، ص ١٦٤ .
(٨٢) المصدر المذكور اعلاه ، ص ١٦٥ .

والذي يشتمل على مناصب ووظائف أعضاء الحكومة وموظفي القصر وأوضاعهم وصلاحياتهم ومرتباتهم ، ومراسم البلاط ، والعقوبات المالية على الجنايات ، فلقد قلنا فيما سبق أنه مزور مدسوس . واهتم الغربيون وعلى رأسهم المستشرق الألماني هامر مؤلف كتاب الدولة العثمانية بهذا القانون لما ورد فيه من تشريع قتل السلطان اخوته عند توليه الحكم . ووقف هامر عند هذه النقطة وقفة طويلة لينال من السلطان ، لتعصبه الممقوت ، على أساس واه باطل . إذ يتبين من النظر الى هذا القانون أنه وضع بعد عصر السلطان الفاتح بزمن طويل[٨٣]وقد انتقده المؤلف التركي الجليل علي همت ألاقسكي انتقاداً منطقيا تاريخياً ، وأثبت بطلانه . . ومما لم ينتبه اليه المؤلف الجليل أنه ورد في خطبة هذا القانون لقب «خليفة المسلمين» بالنسبة للسلطان محمد الفاتح ، ومن المعلوم أنه لم يدع هذا اللقب العظيم ، ولم يرد ذلك في أية وثيقة من الوثائق الرسمية لعهده ، وبعضها موجودة منشورة . كما أنه ورد في آخره اسم نجل السلطان باسم السلطان محمود ، وعائشة بنت محمود هذا، ومن المعروف أن الفاتح لم يكن له ابن بهذا الاسم بل أبناؤه المذكورون في التاريخ هم مصطفى (ومات في حياة والده) وبايزيد الثاني وجم .

أما موضوع تشريع قتل السلطان إخوته عند اعتلائه العرش اتقاء للفتن والتنافس فيختلف فيه المؤرخون اختلافا كبيرا ، فيقول مثلا

---

(٨٣) انظر نصه في كتاب علي همت المذكور ص ١٧٦ ـ ١٦٨ .

العلامة المصري المرحوم أحمد تيمور باشا أن واضع هذا القانون بايزيد الأول أو بايزيد يلدرم[84] ، والمعروف أنه قتل أخاه يعقوب الشاب بمجرد توليه الحكم أثناء معركة قوصوه الاولى .

بينما يقول مؤرخ آخر وهو محمد بيك النقشبندي أن الذي سن هذا التشريع هو بايزيد الثاني بعد الصراع الذي حدث بينه وبين أخيه جم ، والذي دخلت فيه الدول الأجنبية كمصر ، ورودس وألبانيا .

وهكذا فلا يمكن البت في هذا الموضوع ، وأغلب الظن أنه عمل به في عهد بايزيد بسبب فتنة جم ، أو فيما بعد عندما بدأ الإنكشارية يتدخلون في الشئون الحكومية ويقتلون السلاطين ويعزلونهم ويجلسون الآخرين من اخوة السلطان المقتول أو المعزول على العرش في القرن السابع عشر الميلادي .

---

(٨٤) انظر التذكرة التيمورية ص ٢٤٥ .

(٨٥) انظر كتابة ملحق خلاصة السير ص ١٣٨ .

المراجع العربية

١ ـ احمد تيمور باشا : التذكرة التيمورية . . القاهرة ١٩٥٧ .

٢ ـ ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣ أجزاء ، بولاق ١٣١١ هـ .

٣ ـ برنارد لويس : استنبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية تعريب د . سيد رضوان علي . منشورات كلية الآداب جامعة بنغازي ١٩٧٤ .

٤ ـ بينز ، نورمن : الإمبراطورية البيزنطية ، تعريب د . حسين مؤنس ومحمود يوسف زائد . الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٥٧ م .

٥ ـ ابن تغري بردي، ابو المحاسن جمال الدين : النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة ١٤ جزءا القاهرة ١٩٣٠ .

٦ ـ جميلة قيراطلي : مقال «المتصوف الشعبي يونس أمره» مجلة فكر وفن عدد ١٨ سنة ١٩٧٠ . هامبورج . المانيا .

٧ ـ د . الرشيدي ، سالم : محمد الفاتح . الطبعة الثانية . بيروت ١٩٦٩ .

٨ ـ السخاوي ، محمد بن عبد الرحمن : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، مكتبة القدس ١٣٥٤ هـ .

٩ ـ سرهنك ، أمير آلاى اسماعيل : حقائق الأخبار عن دول البحار ٣ أجزاء القاهرة ١٩١٧ .

١٠ ـ شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، تعريب أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر . القاهرة ١٩٤٨ .

١١ ـ الأمير شكيب ارسلان : مقال «فتح الترك للقسطنطينية وخلاصة خططها» في حاضر العالم الإسلامي (الجزء ١) تأليف ستودارد لوثروب ترجمة عجاج نويهض ، ٤ اجزاء في مجلدين (طبعة مصورة) بيروت ١٩٧١ م .

١٢ ـ طاشكبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية على هامش وفيات الأعيان . الطبعة الميمنية ـ القاهرة ١٣١٠ هـ .

١٣ ـ علي همت الأقسكي : أبو الفتح السلطان محمد الثاني وحياته العدلية . ترجمة من التركية محمد إحسان بن عبد العزيز ، القاهرة ١٩٥٣ م .

١٤ ـ عنان : محمد عبد الله : مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام . القاهرة ١٩٥٢ م .

١٥ ـ ابن العماد الحنبلي ، عبد الحي : شذرات الذهب في اخبار من ذهب ١٠ اجزاء . القاهرة ١٣٥١ هـ .

١٦ ـ أبو الفدا : تقويم البلدان .

١٧ ـ فريد ، محمد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، الطبعة الثانية القاهرة ١٨٩٦ م .

١٨ ـ مينوروسكي : مقال «أوزون حسن» في دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية بقلم نخبة من الأساتذة ج ٥) القاهرة .

١٩ ـ النقشبندي ، محمد بيك البرهانبوري : ملحق خلاصة السير تحقيق ظهور أحمد أظهر ، لاهور ، باكستان ١٩٨٠ م .

المراجع الأجنبية

1 ACTON , LORD : Lectures on Modern History , Collins London .(7 Th impression) 1969 .

2 ARNOLD , SIR THOMAS : The Caliphate , (Reprint) Karachi , 1966 .

3 CIPOLLA , C . H . : European Culture and Overseas Expansion . (Pelican Books) , England . 1970 .

4 COLES , PAUL : The Ottoman Impact on Europe . London 1968

5 CREASY , SIR EDWARD : History of the Ottoman Empire , (Reprint) Beirut 1961 .

6 DANIEL , NORMAN : Islam, Europe and Empire , Edinburgh 1968 .

7 GIBBON , EDWARD: The Decline and Fall of the Roman Empire , edited . Oliphant Smeaton . Macmilan , London , 1962 .

8 LANE -POOLE , STANLAY : Turkey , (Reprint) Beirut . 1966 .

9 LEWIS , BERNARD : Istambul and the Civilization of the Ottoman Empire . Oklahama , U . S . A 1963 .

10 MENAGE, V. L.: «Six Ottoman Documents» in Documents from Islamic Chanceries edited . , S . M . Stern London .

11 OSTROGORSKY : « Paliologi » in the Medival Cambridge History , , Vol . IV .

12 PIRENNE, JAQUES: The Tides of History , London 1963

13 RUNCIMAN, S.: The Fall of Constantinople, Cambridge , 1965 .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
بين يدي الكتاب	٧
السلطان محمد الفاتح	٩
حكم السلطان وشخصيته	١٠
فتح القسطنطينية	١٩
فتح صربيا والهرسك وضمها الى الدولة	٣٩
فتح أثينا والجزر اليونانية في بحر إيجه	٤٣
فتح ألبانيا والأفلاق والبغدان	٤٦
الصراع مع أوزون والفتوح في آسيا الصغرى ومنطقة البحر الأسود	٤٩
الصراع مع البندقية	٥٥
حصار رودس واحتلال العثمانيين للشاطىء الإيطالي	٥٩
وفاة محمد الفاتح	٦٠
النهضة العمرانية والعلمية في عهد الفاتح	٦٥
تنظيم الدولة في عهد الفاتح	٨٤

هذا الكتاب

إن السلطان محمد الفاتح من أولئك العظماء الذين لا يخلو كتاب عن تاريخ العالم عن ذكرهم ، وهو يحتل مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي عبر القرون ، لدوره الفريد الذي قام به في إنجاز ما عجز عنه المسلمون لمدة ثمانية قرون ، أعني فتح القسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية التي كانت في صراع مرير متواصل مع الدول الإسلامية المختلفة المجاورة لها طوال هذه القرون . وهو بهذا الفتح استحق لقب « الفاتح » لدى الجميع .

وإن شخصية السلطان محمد الفاتح ذات جوانب متعددة ، وهو في تخطيطه وتصميمه ، وطموحه وإقدامه ، وتقديره ، وتشجيعه للعلم والمعرفة ، وعنايته بالبناء والعمران ، وعمله المتواصل ، ثم في صفاته الشخصية العالية من نبل الخلاق ، ورحابة صدر ، وتسامح وبذل يعتبر نموذجا رائعا للحاكم المسلم المجاهد المستقيم العادل البناء .

وفي هذه الدراسة المتقضبة أعطي صورة موجزة وشاملة عن جوانب شخصيته ومنجزاته السياسية والحضارية ، كما عنيت أن أرد بعض الاتهامات الباطلة من قبل خصومه الأوربيين ومقلديهم من الكتاب المسلمين .

المؤلف

